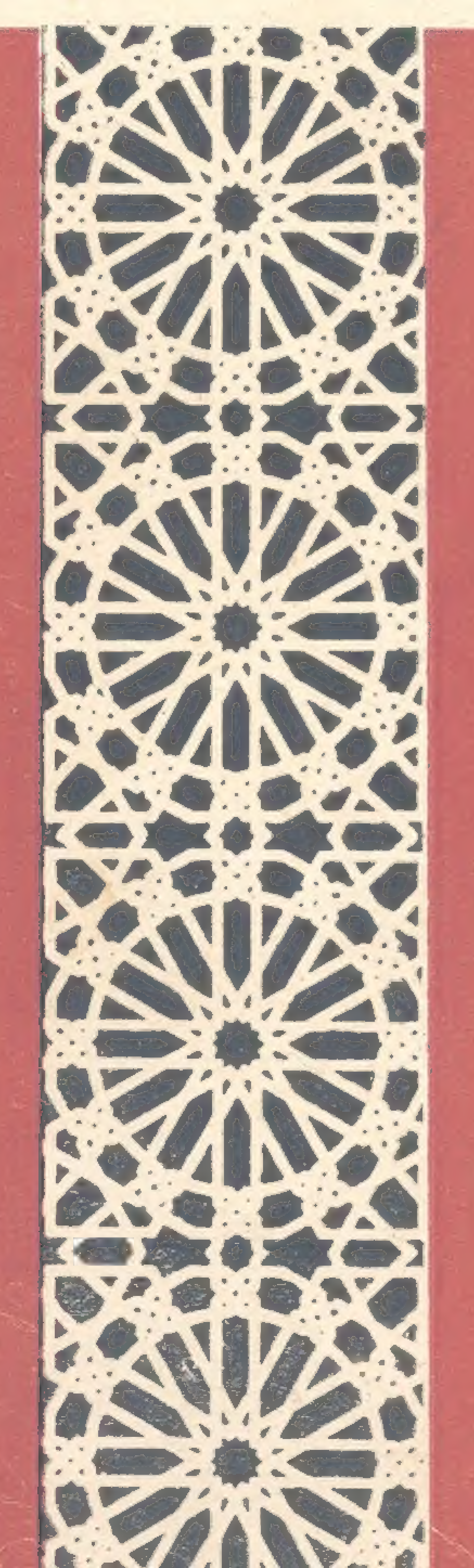
كتاب الهلال ١٠ قروش

سلسلة ثقافية شهرية

الجبرتى وكفاح الشعب

محمود الشرقاوى





كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : محمود أمين العالم

العدد ١٨٤ ربيع الاول ١٣٨٦ – يوليو ١٩٦٦

No. 184 — Juillet 1966

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

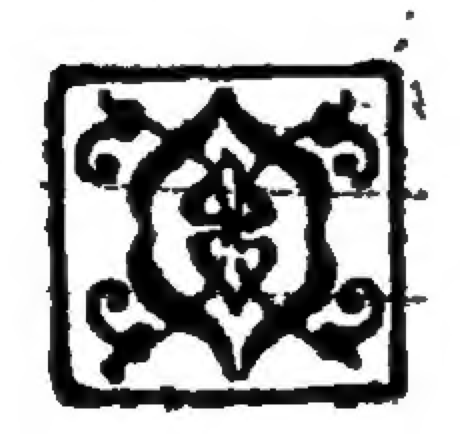
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى الجمهورية العربية المتحدة جنيه مصرى – فى السودان جنيه سودانى فى سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا سوريا لبنانيا – فى بلاد اتحاد البريد العربى جنيه و ٣٠٠ مليم فى الامريكتين ٥ دولارات ونصف – فى سائر انحاء العالم ٣٥ شلنا

سعر البيع للجمهور : قطر والبحرين ٤٠ آنة ، ليبيا (بنغازى وطرابلس) ١٥٠ مليما ، الجزائر ١٧٥ فرنكا . المغرب ١٥٠ فرنكا

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــة الفنـــان
عبـد الغنى أبو العينين

الجبرتى
وكفاح الشعب

•

تأليف
محمود الشرقاوى

•

دار الهلال

تقـــديم

اذا عرف الشعب تاريخه الحق · وكفاحه فى ســبيل العدل والحرية والكرامة · كان اعتزازه بماضيه أقوى · وادراكه لحاضره أشمل وأعمق · وكان اقدامه واقتحامه لمستقبله ، أشد صلابة وجرأة واصرارا · وهو ، مع ذلك ، أقوم نهجا ، وأهدى سبيلا

وهذه صفحات من تاريخ مصر الحديث · قصصت فيها طائفة من الثورات التى قام بها الشعب فى سبيل الحرية والعدل ..

ثورات ولدت فى حجر الشعب · ثم نمت ، وزكت ، وصلب عودها · وأوشكت أن تثمر ثمرة الحرية

وقد جمعت هذه الصفحات ــ الى أبعــد غاية ــ بين تشويق القصة وحقائق التاريخ

وهى تلخص ، فى استيعاب كامل ، مناهضة الشــعب للظالمين من حكامه الاتراك فى القرنين السابع عشروالثامن عشر ، وثوراته عليهم · كما تلخص مقاومة الشعب للحملة الفرنسية فى نهــاية هــذا القرن الاخير ، وصده للغــزو الانجليزى فى أول القرن التاسع عشر

ويجب أن نلاحظ ، فيما يختص بمناهضة الشعب لظلم حكامه الاتراك ، أن العاطفة الدينية كانت لها الغلبـــــة

القوية والسطوة الجارفة على شعور الناس واحاسيسهم . وقد كانت هذه العاطفة ، والرباط الذى نوثق به بين المصريين والاتراك ، عاملا ملطفا ، بل مثبطا لشعور الاولين نحو ما يقع عليهم من ظلم الآخرين وقسوتهم وجبروتهم • كان حالهم فى هذا شبيها بذلك الذى قال فيه الشاعر الجاهلى :

قومى همو قتلوا أميم أخى فاذا رميت ، يصيبنى سهمى
ولئن عفوت ، لاعفون جللا ولئن سطوت لاوهنن عظمى

أو ذلك الشعر الذى كان يتمثله الامام على ، متوجها الى الله ، وهو ينظر الى مصارع أنصاره ومصارع خصومه، فى يوم الجمل

أشكو اليك عجرى وبجرى
شفيت نفسى ، وقتلت معشرى

فقد كانت الوشائج الدينية ، ولها من القوة ما لها فى ذلك الزمن ، تجعل المصريين على أمل دائم فى أن يفيىء الآخرون الى أمر الله ، من الاستقامة فى الناس ، والعدل فى الرعية • وتجعلهم أقرب أيضا الى التسامح والرفق والاحتمال لما يلقون من شر كثير ونكر

فالمصريون ، فى واقع الامر ، لم يكونوا يقاومون ظالميهم من الاتراك أو المماليك فقط • بل كانوا يقاومون شعورهم النفسى ، وايمانهم بمايجب على المسلم نحو أخيه • ولعل هذا ـ الى جانب عوامل أخرى ـ من أسباب هذا الاحتمال الطويل والصبر العجيب الذى نجده عند شعب مصر أمام ما لقى من مظالم ومحن

على أن القدر الذى نجده من كفاحه للظالمين من أبناء دينه ، قدر غير قليل ولا مجحود . كما ترى بعد قليل

فلما جاءت الحملة الفرنسية ، انقضى هذا العامل ، بل وجد عامل مضاد له فكانت هذه الثورات الجارفة القوية المتلاحقة ، التى نرى تفصيلها فى هذا الكتاب

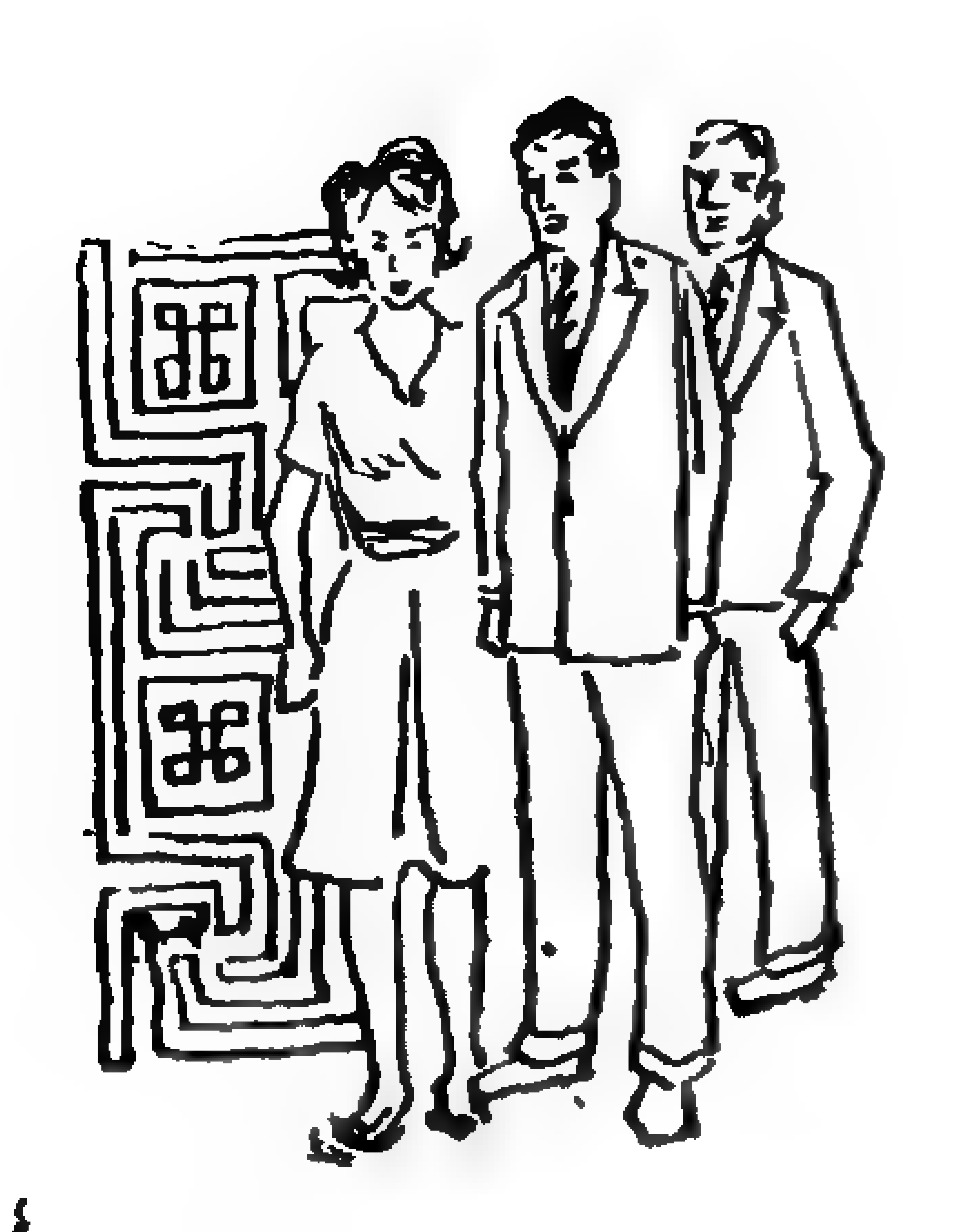
***

ولقد كان لشعب مصر كفاح ، وكانت له هبات وثورات . تتفاوت عنفا وضعفا . بعد هذا الكفاح الذى وقفنا به عند خروج الفرنسيين من مصر

كانت لشعبنا ثورات ، كالثورة العرابية ، وثورة سنة ١٩١٩ وكانت له بينهما هبات شعبية ، أو دستورية ، أو برلمانية . وكانت له بعد ذلك ثورات شعبية عنيفة أو ضعيفة أيضا ، ضد الاحتلال الانجليزى ، وضد الظلمة من سلاطينه وملوكه ، ومن كانوا يحكمون لهم الشعب ، بالقوة والجبروت . وكانت له هبات برلمانية أو دستورية أيضا . حتى جاءت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فبطشت ــ باسم الشعب ــ بطشتها الكبرى

ولكننا وقفنا فى كتابنا هذا ــ كما قلت ــ فى تفصيل هذا الكفاح ، عند خروج الفرنسيين من مصر

محمود الشرقاوى



شعبنا وماضيه

لقى شعب مصر ، فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، كما لقى فى القرنين الاخيرين ، ألوانا من الظلم ، والعنف ، والعدوان ، قل أن لقيها شعب سواه . وكانت حياة الناس ، فى هذين القرنين ، تكاد تكون حلقة متصلة ، مثيرة ، مؤلمة ، من المظالم والنكبات . مظالم من الحاكم المستبد الجاهل ، ونكبات من الطبيعة القاسية . . نكبات قد يكون ظلم الحاكم سببا فى فداحتها ، وقسوتها وتكرار حدوثها

وفى ختام هذين القرنين ، تعرضت مصر لاول غزو أوربى منظم . بحملة نابليون عليها ، واحتلالها

ولكن شعب مصر ، فى غمار هذه المظالم والظلمات . لم يكف عن الكفاح . ليدفع عن نفسه وشرفه ظلم الظالمين ، وليرد عن وطنه عدوان المعتدين . وقد صمد لهذا كله . وقاوم الظلم والعنت ، والعدوان ، مقاومة باسلة مشرفة كريمة . .

ومن يعتقد ، أو يظن ، أن شعب مصر كان فى تاريخه ذاك ، مستسلما للظلم ، راضيا بالهوان • أو أنه استكان للمستبدين • أو خشى بأسهم ـ وبأسهم شديد ـ أو صبر عليهم وتركهم لقضاء الله • كما يزعم كثير من الناس ومن المؤرخين • من ظن أن شعب مصر كان كذلك ، فقد ظلم نفسه ، وظلم وطنه

أما ظلمه لنفسه • فلأنه لم يعرف ، أو لم يقدر جهاد آبائه وأجداده فى كفاح الظالمين ورد المعتدين • ولم يدرك ما بذل هؤلاء وهؤلاء ، من قوة ومن عزم وصبر ، وما تحملوا من تضحيات غالية ، فى سبيل الحياة الكريمة القويمة الحرة ، التى كانوا يبغونها لأنفسهم ووطنهم

وأما ظلمه لوطنه ، فلأنه يضعه وضعا غير كريم ، وغير صادق معا • ويقبل ، فى تاريخ هذا الوطن ، ما لبس المستعمرون والمستبدون ، وما دلسوا وزيفوا من هذا التاريخ الملفق الذى وضعوه لوطننا ، فأظهروه ضعيفا متخاذلا ، مستكينا يقيم على الضيم . ولا يغضب لهوان ، ولا يرد كيد الكائدين ، ولا جور الجائرين ، ولا عدوان المعتدين . وحاشاه ذلك

هذه العقيدة الظالمة الخاطئة ، عقيدة الاستكانة للظلم ، والصبر على البلاء ، والتسليم بحكم القدر . روج لها فى مصر المستبدون والمستعمرون • ومكنوا لها فى نفوس الناس وعقولهم دهرا طويلا • حتى أوشكت أن تكون من الحقائق التى تعلو على المناقشة والجدل • والتمكين لهذه العقيدة ، والايمان بها يفيد هؤلاء المستبدين والمستعمرين • ويوهم شعب مصر بأن قد صدق فيه قول المتنبى :

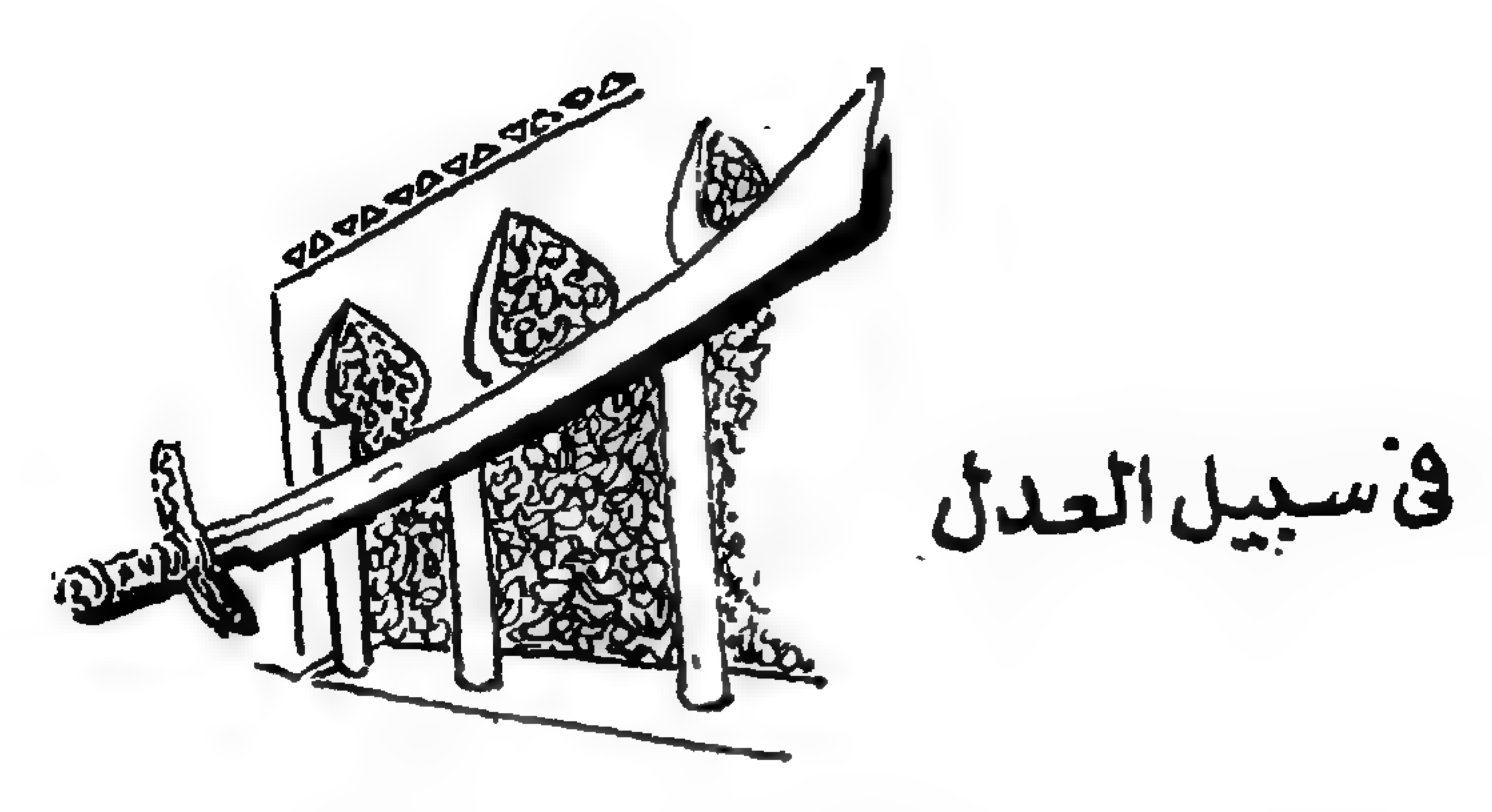
لكل امرىء من دهره ما تعودا ••

وقد آن لنا ، أن نراجع تاريخنا ، وأن ننقى منه الزيوف والعقائد الضارة الخاطئة • وأن ندرك قيمة هذا الشعب الصبور فى غير جبن ، المتسامح فى غير تخاذل ، اللين فى غير ضعف ، الكريم فى غير مذلة ، والذى كان يثور كما يثور الاعصار ، اذا لم يجد سبيلا الى حقه الا الثورة والغضب

آن لنا أن ندرك ، ويدرك الشعب ، قيمة نفسه ،وفخار ماضيه • خاصة فى هذه الفترة الحاسمة ، التى تحاول مصر فيها ، صابرة مثابرة جاهدة ، أن تبنى للمستقبل وأن تبعث فى نفوس أبنائها من جديد ، احساس الحرية ، والعزة والحياة الكريمة

فى هذه الفترة الحاسمة ، يجب ـ أكثر من أى وقت آخر ـ أن نسترجع صور الفخار من تاريخ هذا الكفاح القوى الدائب المشرف لشعب مصر • وأن نقلب صفحات ماضينا ، وما كان لوطننا فيه من بذل وتضحية • ومن اباء وعزة ، على رغم ما كان فيه من بلاء وجهد ، وأن تمتلىء قلوبنا ، وعزائمنا بما توحيه الصفحات من فخار ، ومن قوة وتصميم • حتى نواجه مستقبلنا ، ونحن على ذخيرة كافية من العزم والفهم والادراك • وهى ذخيرة لا بد منها لكل كفاح

وهذا ما نحن بسبيله اذ نكتب هذه الفصول



في سبيل العدل

كانت مصر ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لا تكاد تجد حكومة منظمة ، مستقرة • بل كانت خاضعة لطائفة من أصحاب النفوذ والسطوة • يحكم كل منهم قطعة منها ، أو بلدا • حسبما يشاء ويشتهي • وكان هؤلاء الحاكمون ، من الاتراك أو من المماليك • وكلهم ، في الجملة ، كان شرا من صاحبه وأشد ظلما ، وأفحش عدوانا ..

ولكن شعب مصر ، لم يكن على الدوام صابرا على هذا الشر والظلم والعدوان • بل كانت له غضبات شداد على هذا الظلم

فمن هذه الغضبات ما فعله أهل الاسكندرية بحاكمين من حكامها الاتراك ، ففي شهر يونيو من سنة ١٧٨٥ كان يحكم المدينة رجلان ، قائد الجند التركي ، وكان يسمى أغات القلعة ، والسردار • وكان هؤلاء الجند يعتدون على الناس ، ويسلبون أموالهم ، وينهبون بيوتهم • ويقتلونهم أيضا اذا شاءوا • ويعلم القائد والسردار أمر هذا الذي

يفعله جنودهما بالناس ، فلا يغضبان عليهم • ولا يمنعانهم منه ، ويطلب الناس من القائدين أن يحفظا عليهم أمنهم ، وأموالهم ، وحياتهم من عدوان جندهم ، فلا يستجيبان لهم • ولا يسمعان

وفي يوم من أيام هذا الشهر ، قتل جند السردار رجلا من أهل المدينة ، عدوانا وظلما • فلم يشتك الناس ، ولم يطلبوا أمنا ولا عدلا . بل دفعهم الغضب لان يأخذوا بثأر قتيلهم • وثأرهم • بأيديهم • فثاروا وقصدوا الى حيث كان السردار فقبضوا عليه وضربوه ، واشتدوا فى اهانته وتحقيره • ثم جرسوه ـ وكانت عقوبة «التجريس» هذه ذائعة فى تلك العهود ـ حلقوا نصف لحيته ، وأركبوه على ظهر حمار ، وأخذوا يطوفون به على هذه الصورة شوارع الاسكندرية وطرقاتها ، عارى الرأس ، وهم يصفعونه ، ويضربونه بالنعال

وهكذا كان ثأر الشعب لنفسه ، وغضبه على من يجور عليه ، ويمتهنه

ومن هذه الغضبات ما فعله أهل بولاق بجند الدولة • فقد حاربوهم ، وظهروا عليهم

كان ذلك فى بدء حكم محمد على • وكان هذا يستعين فى ذلك الوقت بطوائف الجند ، من الاتراك ، والارنؤود ، وجند الشام ، الذين كانوا يعرفون « بالدلاة » ، وغيرهم • وكان يضرب هؤلاء الاجناس المختلفة المتنافرة بعضها ببعض ليستريح منها جميعا • كما يضربها بالمماليك ويضرب بها المماليك • فكان الناس فى هذه الفوضى الشاملة ، لا يجدون أمنا ولا سلاما • فيفزعون الى زعيمهم عمر مكرم، نصير محمد على وصديقه فى ذلك الوقت ، ولكن محمد على لا يستطيع ، أو لا يريد ، أن يزجر الجند ، ويكفهم عن

الاضرار بالشعب ، وعن ايذائه . فلما كثرت شكاية الناس من عدوان الجند ، واخذهم بيوتهم بالقهر والقوة . أمر محمد على بأن يترك الناس سلاحهم نهارا ، حتى لا يشتبكوا بالجند . وان يحملوه ليلا ، لحماية انفسهم . ولكن الشعب أبى أن يترك سلاحه وقال الناس : اننا عندئذ نكون طعمة للجند نهارا ، وخفراء بالليل ، نحفظ الامن فى بلد لا يستطيع حاكمه ان يحكم على جنده ورجاله . ووافق زعيمهم عمر مكرم على ما قالوا . بل أمرهم بالدفاع عن أنفسهم ، وألا يلقوا سلاحهم نهارا ولا ليلا ..

وقدم جماعة من الجند الدلاة الى بولاق ، فى شهر يوليو سنة ١٨٠٥ فدخلوا بيوت الناس ، وأخرجوا منها أهلها ، وسكنوها ، وربطوا فيها خيولهم . فهب أهل بولاق للدفاع عن أنفسهم وحرماتهم ، وكرامة بيوتهم . وحاربوا هؤلاء الجند . وقتل من هؤلاء وهؤلاء قتلى . ولكن أهل بولاق هزموا جند الدولة وظهروا عليهم . وأخرجوهم من بيوتهم ..

قتل ياسف

ولم يكن غضب الشعب ولا ثورته ، يقفان عند حد التجريس والحرب . بل كان أيضا يجازى الظالمين باهدار دمهم ، وقتلهم . كما نرى فى قصة ياسف

ففي رمضان من سنة ١١٠٨ (ابريل سنة ١٦٩٧) طلب ملتزم دار الضرب ــ سك النقود ــ للسفر الى اسلامبول . وكان هذا الملتزم اسمه « ياسف » اليهودى . فلما سافر سأله رجال الدولة عن أحوال مصر ، وهل يمكن أن تزاد الجبايات والضرائب على أهلها ... ؟ فقال بامكان ذلك .

وانه كفيل بتحصيلها • ونظم لهم أمر هذه الزيادة • ففرح رجال الدولة بذلك ، وأعجبهم اخلاصه وتدبيره ، وكتبوا له الفرمانات والاوامر السلطانية ، بزيادة الضرائب . ثم عاد الىمصر لينفذ مشيئة الدولة . فلما قدممصر ، تلقاه قومه فى بولاق • وصعدوا به الى الديوان • وقرئت الاوامر التى قدم بها • ووافقه الباشا على تنفيذها • ونادى رجاله بذلك على الناس فى الطرقات والشوارع

يقول الجبرتى : « فاغتم الناس ، وتوجه التجار واعيان البلد الى الامراء ـ يعنى المماليك ـ وراجعوهم فى ذلك • فركب الامراء ، والصناجق وطلعوا الى القلعة • وفاوضوا الباشا ، فجاوبهم بما لا يرضيهم • فقاموا عليه بقومة واحدة وسألوه أن يسلمهم ياسفا ، فامتنع من تسليمه • فأغلظوا عليه وصمموا على أخذه منه • فلما لم يجد بدا من تسليمه ، طلب اليهم أن يضعوه فى العرقانة ـ السجن ـ ولا يشوشوا عليه ، حتى ينظروا فى أمره • ففعلوا به ذلك • ولكن الجند قاموا على الباشا وطلبوا أن يسلمهم ياسفا ليقتلوه ، فامتنع • فمضوا الى السجن وأخرجوه ، وقتلوه • وجروه من رجله ، وطرحوه فى الرميلة (١) • وقامت الرعايا ـ اى الشعب ـ فجمعوا حطبا وأحرقوه »

وذلك جزاء الظالمين

وفى حادث ياسف هذا يروى الجبرتى شعرا ظريفا لشاعر معاصر هو الشيخ حسن البدرى الحجازى • فهو يصف ياسفا ، متى ، وكيف دخل القاهرة ، على ظهر جواده • ثم ما جرى له بعد ذلك من قص رقبته ، فيقول :

فظ ، غليظ ، عنيف ، سوء ، كريه لقاه

---

(١) الآن ميدان المنشية

بعشر صـــــوم أتانا له جـــواد عـــلاه
والناس تشتد سعيا أمامـــــه ووراه
ومعه أمر وفيـــه ما قـــــاده لرداه
فحين قص عليهم ما قص ، قصوا قفــاه
بصارم ذى صقال أزال عنا عنــاه

الشيخ الدردير يقود الثورة

وفى هذه الثورات الشعبية التى كان يهب فيها أهل مصر لرد عدوان الظالمين عنهم ، وعقابهم أيضا . كان العلماء القادة يشاركون الشعب احساسه وثورته . بل كثيرا ما كانوا يقودونه فى ثورته ، ويحرضونه . وللشيخ أحمد الدردير - وكان من أكبر العلماء ، ومفتيا للمالكية - فى ذلك مواقف كريمة ، نذكر بعضا منها :

فى يوم من أيام ربيع الاول من سنة ١٢٠٠ (يناير ١٧٨٦) قام حسين بك شفت (١) أحد كبار المماليك ، ومعه طائفة من جنوده قاصدا منطقة الحسينية واقتحم دار رجل اسمه أحمد سالم الجزار ، كان رئيسا على دراويش الشيخ البيومى ، ونهب الامير حسين دار هذا الشيخ . وفى صباح اليوم التالى ثار جماعة من الحسينية ، وخرجوا الى الازهر ، وشكوا أمرهم الى الشيخ أحمد الدردير ، فشجعهم فى ثورتهم ، وغضب لهم وقال لهم أنا معكم . فقام الغاضبون الى أبواب الازهر فغلقوها ، وصعدت طائفة منهم على المآذن يصيحون ويدقون الطبول ، وانتشر الناس فى الاسواق وقد ظهر عليهم الغضب والتحفز ، وأقفل التجار متاجرهم . فلما رأى الشيخ الدردير ثورتهم هذه قال لهم : موعدنا غدا !

(١) يقول الجبرتى أن « شفت » معناها اليهودى . واعتقد انهـا محرفة من كلمة « جفت » التركية ، بهذا المعنى

لنجمع الناس من أطراف المدينة ، وبولاق ومصر القديمة. وأسير معكم الى بيوت هؤلاء الامراء تنهبها كما ينهبون بيوتنا • وسينصرنا الله عليهم ، أو نموت شهداء ، وبعد ساعات من النهار ، أرسل ابراهيم بك ، شيخ البلد وكبير المماليك ، ونائبه ، أمير الحج الى الشيخ الدردير يرجوه أن يرسل اليه قائمة بجميع ما نهب من بيت الشيخ الجزار حتى يرده اليه

وفى شهر جمادى الآخرة ، من السنة نفسها كان مولد السيد البدوى ، فى طنطا ، وكان الشيخ الدردير فى المولد ، وجاء « كاشف » الغربية ، أى حاكمها ، من قبل ابراهيم بك ، ففرض على الناس مغارم ثقيلة • وأخذ ابلا لبعض الاعراب كانوا يبيعونها فى المولد • فشكوا أمرهم الى الشيخ . فامر بعض اتباعه أن يذهبوا الى الكاشف فخشوا بطشه ، ولم يذهبوا • فركب الشيخ بنفسه ، ومعه بعض أتباعه ، وكثير من العامة • فلما أقبل على خيمة الكاشف ناداه فحضر اليه • وكلمه الشيخ ، وهو على ظهر بغلته وقال له : انكم لا تخافون الله • واشتد عليه بالتأنيب والزجر • فلما رأى الناس ذلك خرجوا عن طورهم • وضربوا نائب الكاشف • وقامت فتنة بينهم وبين الجند ضرب فيها واسر واحد من أتباع الشيخ . وذهب كاشف المنوفية وكاشف الغربية بعد ذلك يعتذران الى الشيخ • ولما عاد الى القاهرة قدم ابراهيم بك بنفسه الى منزله معتذرا ومعه كبار المماليك

وقبل ذلك بعشر سنين ، آلت بعض الاوقاف المحبوسة على طلبة العلم الى الطلبة المغاربة • ولكن واضع اليد جحد هذه الايلولة ، وأبى أن يسلم الحق لاصحابه • ولجأ فى ذلك الى الامير يوسف بك ، أمير الحاج ، فنصره هذا على

باطله • وأقام المغاربة دعواهم امام القاضى ، فأثبت لهم حقهم • ولكن الامر كبر على يوسف بك وأبى أن يمتثل لحكم القضاء • بل أمر الشيخ عباس – زعيم المطالبين بوقف المغاربة – أن يساق الى السجن • فلما ذهب رسل الامير يوسف بك الى الازهر لأخذ الشيخ عباس ، طردهم الازهريون ، وسبوهم ، ولم يمكنوهم منه • ثم قصدوا الى الشيخ أحمد الدردير فأخبروه الخبر • فكتب الشيخ الى يوسف بك ألا يتعرض لاهل العلم ، وألا يعاند فى حكم أصدره القاضى • وأرسل الشيخ كتابه هذا الى يوسف بك مع شيخين اختارهما لذلك. فلما وصل الشيخان برسالة الدردير ، أمر يوسف بك بالقبض عليهما ، وزجرهما زجرا شديدا ، ثم سجنهما

ووصل خبر ذلك الى الشيخ الدردير ، وأهل الازهر • فاجتمعوا عند الصباح وأبطلوا دروس العلم ، والاذان ، والصلاة • وأقفلوا أبواب الجامع • وجلس العلماء عند القبلة القديمة • وكان الازهر يموج بالناس ، فصعد الصغار منهم الى المنارات والمآذن يكثرون من الدعاء على الامراء • وشارك الشعب أهل الازهر شعورهم بالسخط واحتجاجهم على الظلم ، فأغلقت الحوانيت والمتاجر •وعرف الامراء ما جرى فأرسلوا الى يوسف بك ليطلق سراح الشيخين ، فأطلقهما ، وأرسل شيخ البلد ابراهيم بك ، كبيرا من رجاله الى العلماء ، فلم يستطع ارضاءهم • وجاء كبير آخر يطلب الى الناس ان يفتحوا متاجرهم ، وينصرفوا لشأنهم • فذهب اليه طلبة الازهر ، وجموع من الشعب بأيديهم العصى والمساوق • وضربوا أتباع هذا الكبير ورجموهم بالحجارة • فأطلق عليهم هو ورجاله الرصاص • وقتل ثلاثة من الطلبة ، وجرح بعض أفراد الشعب • وخشى الامراء بعد ذلك أن يتفاقم الخطب ، وتزيد ثورة

الشعب والعلماء اشتعالا ، فأرسلوا فى اليوم التالى كبيرا منهم ، مع الشيخ السادات ، وآخرين من الامراء • ورأوا من الحكمة ألا يذهبوا الى الازهر ، فى وسط هذه الفتنة • فجلسوا فى مسجد الاشرف ، وأرسلوا الى أهل الازهر ومن معهم من الثائرين ، أن طلباتهم أجيبت ، فلم يقنعهم ذلك، ولم يتركوا أماكنهم ، فلم ير اسماعيل بك ، كبير الامراء ، بدا من أن يذهب بنفسه اليهم • فنزل مع الشيخ السادات ولم يستطع أن يواجه الثائرين داخل الازهر ، فجلس مع السادات فى مسجد المؤيد ، وأرسلا اليهم كتابا تعهد فيه

اسماعيل بك بان يجيب رغائبهم ، ويقبل جميع مايطلبون وقال : ان ضمينه فى ذلك الشيخ السادات • وظـل اسماعيل بك يراسل المتترسين داخل الازهر يوما كاملا حتى استجابوا ، وفتحوا أبواب الازهر ، وكان مما شرطوه على اسماعيل بك ألا يمر الاغا ، ولا الوالى أو المحتسب قريبا من الازهر

واعظ من الروم

وفى سنة ١٧١١ كان فى القاهرة واعظ رومى ، أى تركى ، جلس فى مسجد المؤيد يدعو الناس الى ترك البدعة والمغالاة فى زيارة الاضرحة والقبور ، والتوسل ، وقام بينه وبين مخالفيه فى هذه الدعوة نزاع شديد •

استعان فيه المخالفون بفتـوى أصدرها بعض العلمـاء ، واستعان فيه الواعظ الرومى بأنصاره الذين آمنـوا بفكرته واعتقدوها • وكانوا جمعا عظيما ، يقرب من الالف • فسار بهم الى أن دخل بيت القاضى • فلما رآهم القاضى ، وشاهد كثرتهم ، انزعج منهم • ثم سألهم عما يريدون ، فقالوا : نريد أن تحضر الذين أصدروا هذه

الفتوى لنباحثهم أمامك • فاحتال عليهم القاضى ليخلص منهم • ولكنهم لم يتركوه حتى استصدروا منه فتوى بصحة رأى الواعظ وغلط مخالفيه • وكانت بين القاضى وترجمانه ، وبين جماهير الشعب ، موقعة صغيرة • ضرب فيها الترجمان ، واختفى القاضى وحريمه • ولكن الواعظ الرومى اختفى ايضا : ومنع من القاء درسه • فلما ذهب الناس الى مسجد المؤيد ولم يجدوه ، ذهبوا بجمعهم الى المحكمة • فلما رآهم القاضى ومن فيها ، طارت عقولهم من الخوف ، وفر من بالمحكمة من الشهود • ولم يبق الا القاضى • فدخلوا عليه وقالوا له : أين شيخنا •• ؟ فقال لا أدرى • فطلبوا اليه أن يذهب معهم الى الوالى ليحدثه فى هذا الشأن • ويطلب اليه أن يحضر المخالفين للواعظ ليناقشوهم • فان أثبتوا دعواهم ، نجوا ، والا قتلناهم • فركب معهم القاضى ، وهم يحيطون به ، الى أن صعدوا الى القلعة لمقابلة الباشا الوالى فتحدث هذا الى القاضى ، حديثا فيه لوم على حضوره مع هذه الجموع الكثيرة الغاضبة • وفيه توجس وخوف من غضب هؤلاء الثائرين فقال له القاضى : انظر اليهم • فهم الذين أرغمونى على أن أجيىء معهم اليك

ونظر الباشا الى الثائرين على خطف شيخهم • ورأى فى عيونهم نظرة الشر والغضب والتحدى • ولم يستطع ان يصطدم بهم • فأمر بما يريدون • وأن يحضر الشيخان اللذان عارضا الواعظ ليجادلاه • وأن يمكن هذا من القاء وعظه . وذهب الناس فجاءوا بواعظهم وأجلسوه على مقعده فى مسجد المؤيد (١)

---

(١) تفصيل قصة هذا الواعظ فى الجزء الاول من كتابنا «دراسات فى تاريخ الجبرتى» ص ٩٧ — ١٠٠

أحمد باشا الدفتردار

ولم تكن ثورة الشعب على الامراء ، والجند ،والحكام، وحدهم • بل كان يثور على الولاة أنفسهم • يتحداهم ويحاربهم ، وهو بذلك يحارب سلطانَ الدولة التى ولتهم فى اسلامبول • ونجد فى تاريخ هذه الفترة كثيرا من الثورات الشعبية التى عصفت بحكم الوالى نفسه • ونجد أن أهل القاهرة استطاعوا ، غير مرة ، أن يعزلوا الظلمة من الولاة • وأن ينزلوهم من القلعة ، مقر الحكم اذ ذاك، وان يرغموا السلطان على اقالتهم واخراجهم من مصر ، مقهورين ، مهانين

فمن ذلك ما حدث للوالى أحمد باشا الدفتردار . ففى سنة ١٠٨٦ هـ «١٦٧٥ م» اختارته الدولة واليا على مصر وعرف الناس أنه سيحدث أحداثا من الضرائب والمظالم• وكان له صديق اسمه عبد الفتاح أفندى الشعراوى قدم معه من اسلامبول ، وكان الناس يعتقدون انه يحرضه على هذه الاحداث • فوقفوا فى طريقه عند نزوله من القلعة وقتلوه وقطعوا أوصاله . ثم ذهبوا الى أحمد باشا فى القلعة ، وساعدهم الجند والامراء ، وطلبوا اليه أن يعتزل، فأبى فهددوه بالقتل ، وأن يصنعوا به مثل ما صنعوا بصديقه الشعراوى • ثم نظر فرأى ثورة الشعب ، وتربصهم به ، وأنهم يحيطون بالقلعة ، يزيد عددهم ولا ينقص . فآثر السلامة ونزل ، فوضع فى بيت بحى الصليبة ، حتى جاء خلفه وصعد الى القلعة ..

زحف الجياع

بل نجد أن الفقراء ، والنساء ، والشحاذين • كانت لهم ثورة عزل بسببها وال ظالم

فقد جاءت سنة ١١٠٧ « ١٦٩٥ م » ومصر تعانى غلاء شديدا ، ومجاعة . والناس فى كرب عظيم ، بالقاهرة والاقاليم . ونزح أهل القرى الى مصر ، حتى امتلأت منهم الازقة . وأكل الناس الجيف ، ومات الكثير من الجوع . وخلت القرى من أهلها . وخطف الفقراء الخبز من الاسواق ومن الافران ، ومن فوق رءوس الخبازين . يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه وبأيديهم العصى ، حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودوا به . وكانت مع ذلك خزائن الوالى وكبار رجاله ملأى بالقمح ، وغيره من خيرات مصر ..

يقول الجبرتى : « وفى منتصف المحرم ، اجتمع الفقراء والشحاذون ، رجالا ، ونساء ، وصبيانا . وطلعوا الى القلعة ، ووقفوا بحوش الديوان ، وصاحوا من الجوع . فلم يجبهم أحد ، فرجموا بالاحجار . فركب الوالى وطردهم فنزلوا الى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة التى بها ، ووكالة القمح ، وحاصل كتخدا « أى نائب الباشا » وكان ملآن بالشعير والفول : وكانت من هذه الحادثة ابتداء الغلاء (١) »

وكان من نتيجة هذه السياسة الظالمة ، العجيبة . وتفاديا لغضب الشعب وثورته ، أن عزل هذا الوالى الظالم ، على باشا خازن دار ، واستبدل به اسماعيل باشا ، فلما استقر بالقلعة ، فى يوم الخميس السابع عشر من صفر ، ورأى ما فيه الناس من الكرب والجوع ، أمر بجمع الفقراء والشحاذين ، بقراميدان . فلما اجتمعوا أمر بتوزيعهم على الامراء والاعيان . كل انسان على قدر

---

(١) ما اقتبسه من الجبرتى أنقله بنصه ، وماقد يكون فيه من خطأ

حاله . واختص هو وأعيان دولته بفريق منهم ، وعين لهم ما يكفيهم من الخبز والطعام ، صبحا ومساء ، الى أن انقضى الغلاء . وجاء بعد ذلك وباء عظيم . فأمر هـذا الوالى بتكفين الموتى من الفقراء والغرباء ، من بيت المال. فصاروا يحملونهم من الطرقات ، ويذهبون بهم الى مغسل السلطان ، عند سبيل المؤمن

وقد عزل على باشا الظالم ، بعد ثلاثة ايام من زحف الجياع ..

وقد نقلت ما وصف به الجبرتى حال الناس من الجوع والمرض ، لنستطيع ان ندرك ما كان عليه الشعب من التلاشى . ومع ذلك فقد كان يثور ، ويفتك بظـالميه ، ويعزلهم من الولاية

وثيقة حقوق الانسان

واستطاع شعب مصر ، فى ثوراته القوية المتعددة على الظلم والظالمين ، أن ينتزع منهم « وثيقة حقوق الانسان » فى الحرية ، والعدل ، والامن ، قبل أن يستتب الامر للثورات الكبرى ، فى أوربا

ففى شهر ذى الحجة من سنة ١٢٠٩ « ١٧٩٥ » جاء الى الشيخ عبد الله الشرقاوى جماعة من فلاحى مدينة بلبيس — وكان له أرض بها — فشكوا اليه محمد بك الألفى ، وأنه يفرض عليهم ما لا قدرة لهم به . فغضب الشيخ وتوجه الى الازهر فجمع شيوخه وأقفلوا أبواب الجامع وأمروا الناس بترك الاسواق والمتاجر

وركب الشيوخ فى اليوم التـالى ، وتبعهم كثير من الناس ، الى بيت الشيخ محمد السادات . واجتمع جمهور كبير من الشعب . وكان بيت ابراهيم بك ، شيخ البلد ،

قريبا من السادات • فلما رأى زحمة الناس وتكاثرهم ، أرسل ايوب بك الدفتردار الى العلماء ، فوقف بين يديهم، يسألهم عن مرادهم • فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات • أى الضرائب

وكانت ملحمة كلامية شديدة ، بين العلماء وأيوب بك• قال العلماء فيها مخاطبين الحكام : ان ما تدعونه من كثرة النفقات ليس بعذر عند الله ، ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات ؟ والامير يكون أميرابالاعطاء لا بالاخذ •• ؟

وبلغ الامر غايته ، وخاف ابراهيم بك مغبة الثورة • فارسل الى العلماء ـ وكانوا يقضون ليلتهم داخل الازهر ـ انه يؤيدهم فى غضبهم ويبرىء نفسه من تبعة الظلم ، ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك • وأرسل فى الوقت نفسه ، الى مراد يحذره عاقبة الثورة • واستسلم مراد بك ، فأرسل الى العلماء ، والشعب من ورائهم يجيبهم الى ما يطلبون

وفى اليوم الثالث ـ وكان العلماء والناس معهم لا يزالون مرابطين داخل الازهر ـ حضر الوالى الى منزل ابراهيم بك ، واجتمع الامراء ايضا ، وأرسلوا الى العلماء، فحضر منهم الشيخ السادات ، والسـيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ الامير ، وكان هؤلاء رسل الثورة وقوادها ، وطال الجـدل بين الشيوخ والامراء ، ثم انتهى بأن أعلن الظالمون انهم تابوا ورجعوا ، والتزموا ما شرطه العلماء عليهم • اعلنوا انهم سيبطلون المظالم والضرائب المحدثة ، ويأمرون اتباعهم بالكف عن سلب أموال الناس ، ويرسلون اوقاف الحرمين الشريفين ، والعوائد المقررة اليهما • ويسيرون فى الناس

سيرة حسنة

وكان قاضي القضاة حاضرا هذا المجلس • فكتب على الامراء وثيقة بذلك • أمضاها الوالي وابراهيم بك ، ومراد بك • وخرج العلماء من هذا المجلس التاريخي تحيط بكل واحد منهم جماعة عظيمة ، وهم ينادون : لقد رسم سادتنا العلماء ، أن المظالم رفعت عن مملكة الديار المصرية ،وفرح الناس ..

وهذه وثيقة حقوق الانسان • أعلنهـــا شعب مصر ، وقهر حاكميه ، على توقيعها منذ ١٦٠ عاما

خورشيد باشا والفلاحون

أما كفاح الشعب ضد الوالي أحمد باشا خورشيد، وحصاره له ، وحربه الطويلة الشاقة معه ، ثم عزله • فهو كفاح جدير بشعب مصر حقا ، وهذه قصته

كانت مصر في مستهل القرن التاسع عشر نهبـــا للاعاصير والزعازع والفتن ، بعد خروج الحملة الفرنسية منها ، وبعد هذه السنين القاســية ، التي كافحت مصر فيها كفاح الابطال للتخلص من هذه الحملة

وجاءت سنة ١٨٠٥ وفي ولاية مصر أحمد باشــــا خورشيد • وكان رجلا ظالما يستعين على ظلم المصريين بجند « الدلاة » أو « الدلاتية » وكانوا أكثر طوائف الجنـــد قسوة ، وتنكيلا ، وجورا على أهل مصر

ارتفع صوت الشعب ، طالبا الى هذا الحاكم الظالم أن يعتزل حكمه • ولكنه أبى أن يستمع • بل أدل بقوتـــه وجبروته • وطلب الى السيد عمر مكرم ـ زعيم مصر اذ ذاك ـ والى العلماء أن يجيئوا اليه • فلما جاءوه ، قال لهم بصوت الحاكم المطلق : اني مولى بأمر السلطان « وكيل

مفوض ودستور مكرم أعزل من أشاء وأولى من أشاء ، ولكن صاحب هذه السطوة كلها لم يفلح فى ارهـــاب الشعب ، فقد بدأ العلماء يجتمعون ويتشـــاورون ، ثم انتهوا الى الامتناع عن القاء دروسهم فى الازهر ، وبدأ الشعب بقيادة زعيمه عمر مكرم ، يتحفز للثورة على مفوض السلطان وصاحب الدستور المكرم ٠٠ !

وعندما رأى خورشيد هذه القوة من روح الشعب ، أرسل نائبه الى العلماء ، والى السيد عمر ، يتودد اليهم فلم ينخدعوا له ، وتربص الشعب بنائب الوالى فأوسعه رجما بالحجارة ، وسبوه ، وشتموه

ثم اجتمع العلماء والناس ، حتى الصبيان ، فى بيت قاضى القضاة ٠ وأجمعوا أمرهم على التخلص من هـــذا الباشا الظالم . واتفق رأى الجميع على أن يكتب القاضى الى كبار أهل الدولة ، فحضروا جميعا ، وطفقوا يتزلفون الى ممثلى الشعب من العلماء والقادة ٠ ثم جعلوا أنفسهم وسطاء بين الشعب والوالى ٠ وأرسل خورشيد ، بعد ان نقل اليه أنصاره ما شهدوا من غضب العلماء والشعب ، أرسل يطلب الى القاضى والعلماء يزعم انه يستشيرهم ٠ ولكن السيد عمر ، منعهم من الذهاب ٠ فامتنعوا ٠ وفى اليوم التالى لهذا الرفض اجتمع الزعيم عمر مكرم بالعلماء وبكثير من الشعب فعزلوا خورشيد ، ثم ابلغوه قرارهم، فكان جوابه ان قال : انى مولى من طرف السلطان فلا اعزل بأمر الفلاحين . . !

عند ذلك خرج الناس ، حتى العلماء ، يحملون سلاحهم وعصيهم . فامتلأت بهم بركة الازبكية . وكتب قـــاضى القضاة الى خورشيد يحذره نتيجة عناده وشططه . وقال له : انه حضر الى نحو اربعين الفا من الناس يطالبـــون

بعزلكم او حربكم . وأخذ مكرم والعلماء يحرضون الناس على الحرب ، ويأمرونهم بحصار القلعة ، حتى ينزل منها خورشيد . وأطاع الشعب أمر قادته ، فخرج الناس أفواجا يتسابقون ويقيمون المتاريس ، ويحكمون الحصار ويثيرون فى الليل المشاعل ، ساهرين يرقبون ما يفعله خورشيد وجنده . وجاءت جموع المحاربين ثائرة من الحسينية والعطوف والقلعة والازهر والقرافة والصليبة ومن أطراف القاهرة ، ومعهم طبولهم وبيارقهم وأسلحتهم ملبين أمر قادتهم . وقد بلغت حماسة الشعب حدا فائقا ، حتى كان الفقير يبيع ثيابه او يستدين ليشترى سلاحا . وشارك القبط اخوانهم المسلمين موقفهم وشعورهم ، وكان كبيرهم المعلم جرجس الجوهرى ، يجتمع بالعلماء والشيوخ ، الشرقاوى والامير وقاضى القضاة فى بيت السيد عمر لتنظيم الثورة وتوجيهها

وفى غمار هذه الحماسة الفياضة ، جاء كبير من رجال خورشيد . يريد ان يوهن عزيمة السيد عمر مكرم . وان يثير شكوكه فى صواب ما فعلوا ، وان يوقع الفتنة بينه وبين غيره من العلماء والقادة ، قال الكبير من رجال خورشيد للسيد عمر : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم . وقد قال الله تعالى : «واطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الامر منكم » ولكن الزعيم مكرما أجابه بما أسكته ولم يكن يخطر له ببال ، فقال : اولو الامر ، العلماء ، وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا الرجل ظالم . وللناس أن يعزلوا الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه . حتى الخليفة والسلطان اذا سار فيهم بالجور ، فانهم يعزلونه ويخلعونه . .

وهذا الجواب من عمر مكرم ، يدلنا على مستوى الادراك السياسى والحرص على حقوق الشعب وسيادته،

عند اهل وطننا منذ مئة وخمسين سنة

ثم سار عمر مكرم ، بعد هذه المناقشة المفحمة ، وعلى راس الجموع المسلحة من ابناء الشعب ، ليحكم الحصار على القلعة . وتخلف بعض من الجند كان يحاصر القلعة مع المحاصرين ـ وكان ذلك بسبب رواتبهم ـ فذهب جماعة من المتطوعين فأقاموا مقامهم

وطال الحصار بخورشيد وأوشك أن يفتك به وبقومه الجوع والعطش . فأرسل كتابا الى بعض انصاره ، فى قليوب ، يطلب اليهم ان يخرجوه من حصار «الفلاحين» « صيانة لعرض السلطنة . وناموس الدين » ولكنهم خشية من غضب الشعب ، بعثوا برسالته الى السيد عمر مكرم ..

وبقي الشعب يحاصر خورشيد باشا ومن معه فى القلعة زمنا يقرب من شهرين حتى ضاق به وبهم الحال . وكان بعض رجاله يتسلل الى خارجها لينال شيئا من طعام أو ماء ، فكان الناس يأخذونه أسيرا ، او يقتلونه ، وفى كثير من أيام هذا الحصار الطويل كانت مدافع القلعة ترمى قنابلها على الناس والبيوت ، وبعض هذه القنابل كان يزن قنطارين ، فكان المحاصرون والمتطوعون من ابناء الشعب يرمون قنابل مدافعهم كذلك على القلعة

ثم جاء بعد ذلك « فرمان » من السلطان بعزل خورشيد، نزولا على ارادة الشعب . وقدم بالفرمان من اسطنبول رسول خاص هو بشير أغا . ولكن خورشيد أصر على عناده ، ولم يمتثل لامر السلطان وقال انى وليت حكم مصر « بخطوط شريفة ، وأوامر منيفة ، ولا أنعزل بورقة .. ! »

وبقيت الحرب ، وبقي الحصار أياما أخرى حتى جاء الى خورشيد باشا مرة أخرى « سلحدار » من قبل السلطان ومعه أمر بالنزول من القلعة لساعته حيث لم

يرض العلماء والناس أن يظل واليا عليهم . وصعد رسولا السلطان ، بشير أغا والسلحدار ، الى القلعة واجتمعا بخورشيد ، فشكا اليهما ما أصابه من حرب أهل مصر وحصارهم له حتى لم يبق عنده غير الثوب الذى يلبسه !

وأرسل السيد عمر مكرم مائتين من الابل فحملت متاع المحاصرين ونساء خورشيد ، ثم نزل هو فاستضافه عمر مكرم . ولعله اراد امرا اخر غير الضيافة زيادة فى الحذر والحيطة . لانه حذر الناس من ترك سلاحهم ومتاريسهم حتى يرحل خورشيد ومن معه ، وقال : « هؤلاء قوم لا عهد لهم ولا ذمة ولا يؤمنون »

وبقى خورشيد فى بيت الزعيم مكرم خمسة أيام ثم خرج — فى ١٣ اغسطس سنة ١٨٠٥ — فركب النيل من بولاق ، بعد ان حاربه أهل مصر ، وحصروه فى القلعة حوالى ثلاثة أشهر . خرج الحاكم الظالم مقهورا بعزيمة من كان يسميهم « الفلاحين »

وعاد العلماء ففتحوا أبواب الازهر ، وقرأوا دروسهم ، وفتح الناس متاجرهم ، وتركوا سلاحهم فرحين ، وانصرف كل لشأنه

لقد انتصرت ارادة الشعب

ويجب أن نلاحظ ونحن نسجل هذا النصر الحاسم لشعب مصر ، انه كان ثمرة لاتحاد الشعب كله ، قادته وأفراده ..

فقد رأينا أصحاب الرأى والسيادة ، وهم العلماء ، يقودون الشعب ويحملون — اذا لزم الامر — سلاحهم يقاتلون ..

ورأينا ممثل السلطة الروحية العليا ، وهو قاضى القضاة ، ولو انه كان تركيا ، يستجيب لصوت الشعب ،

وينصاع له وينصره . ورأينا القبط مع المسلمين يــدا واحدة ، واحساسا واحدا . يشترك كبيرهم مع العلماء والقاضى ، فى السعى والتدبير لنصرة الشعب ، ونجـاح ثورته ..

ورأينا قبل هؤلاء زعيم مصر السياسى ، عمر مكرم ، يقود هذه الثورة بفكره الراجح ، وشجاعته وفطنته

ورأينا هؤلاء جميعا ، يؤمنون بفكرتهم ، وبالشعب . ويؤثرونها ويؤثرونه ، على راحتهم ، وأموالهم ، وحياتهم . ليس فى نفوسهم حسد ، ولا ضغينة ، ولا انانية . ولاتستتر فى ضمائرهم أحاسيس خفية ، ولا شهوات ، ولا مطامع

ورأينا ، خلف هؤلاء وهؤلاء ، شعب مصر المكافح ، يثق بقادته . ويؤمن بهم ، ويطيعهم . كان الشعب ينظر الى قادته نظرة الرضى ، والثقة ، والامن والطمانينة . وكان القادة ينظرون الى الشعب نظرة المودة ، والمحبة والتضحية والصدق ، فنجحوا ، ونجح الشعب

وقد ابرزت هذه الروح بطلا شعبيا كان له أثر عظيم فى هذا النجاح ، وهو حجاج الخضرى (١)

وصدق مهيار الديلمى اذ يقول :

نام ، على الهون ، الذليل ، ودرى

جفن العــزيز ، لم باتٍ يسـهد

---

(١) ترجمة حجاج الخضرى فى فصل : « زعماء وابطال » من هذا الكتاب « ص : ١١٣ - ١١٦ »



الانجليز والفرنسيون

بدأ الجبرتى حديثه عن سنة ١٢١٣ ، (١٧٩٨ م) وهى السنة التى قدمت فيها حملة نابليون ، بهـــذه الفقرات القوية المؤثرة . والتى هى فى الوقت نفسه ، صادقة كل الصدق : « هى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة . وتضاعف الشرور . وترادف الامور ، وتتابع الاهوال ، واختـلاف الاحوال . وفساد التدبير ، وحصول التدمير . وعمـوم الخراب ، وتواتر الاسبـــاب وما كان ربك مهلك القرى بظلم واهلها مصلحون »

والحق أن حملة نابليون على مصر ، كانت نقطة تحول فى تاريخها . وكانت ذات أثر بالغ فى حيـــــاة اهلها ، ومستقبلهم . كما كانت محنة من أشـــد المحن ، التى لقيتها مصر

وقد تلقى المصريون حملـة نابليون ، كما تلقوا الحملة الانجليزية بعد ذلك ، بعزيمة الرجال ، ودافعوا عن وطنهم دفاع الابطـــــال . فلم يمكنوا للانجليز من البقاء فى

الاسكندرية ، وجعلوا اقامة نابليون وجنوده فى بلادهم غير سائغة ، ولا مستطاعة . بعد ان مكنهم مراد وابراهيم ، بحماقتهم . وجبنهم ، وسوء تدبيرهم . من دخـــول القاهرة ، بعد مقاومة لم تدم ساعة واحدة

وكانت المقاومة التى لقيها الانجليز والفرنسيون . من شعب مصر . صفحة فخار ومجد وبطولة . قل أن نجد لها نظيرا فى تاريخ الشعوب المكافحة عن حريتها، وكرامتها، وأوطانها . وكانت الظروف التى يخضع لها شعب مصر فى ذلك الوقت ، ظروفا غريبة ، شـــاذة . تضاعف من قيمة هذا الكفاح . وتزيد فى فخارها به

فقد كانت البلاد خاضعة لحكم فاسد ، كلـــه ظلم ، وظلمات . وكان اهلها بين شـــقى الرحى . من منازعات المماليك ، بين بعضهم وبعض تارة ، وبينهم وبين الدولة تارة أخرى ، أو بينهم وبين محمد على . ومن ظلم الولاة الاتراك وجنودهم . وكان مراد قد تسلط عليها هو وشريكه ابراهيم ، واذاق اهلها من الظلم ما لم يروه فى تاريخهم الطويل ، فلما قدم الانجليز ، والفرنسيون من قبلهم ، هب المصريون ، من الفلاحين ، والفقراء ، والعامة وطلبة الازهر ، والنساء . للدفاع عن وطنهم ، الذى لم يجدوا فيه لقمة العيش. فقد كان الظالمون ينزعونها من أفواههم . ولكن المصريين ايقنوا أنه وطنهم ، فلا بد أن يدافعوا عن ترابه . ولو لم ينالوا منه غير هذا التراب . وان هؤلاء الظالمين لن يدافعوا عنه لانهم لا يستحقون شرف هـــذا الدفاع . وانهم سيجلون عنه يوما ، عاجلا أو آجلا ، كما تنجلى الظلمات ..

وهذه الصفحات ، التى تكتبها عن « كفاح الشعب » ضد الغزو الانجليزى ، والاحتلال الفرنسى . يجب أن

تملأ قلوبنا بالفخار ، والعزة والشمم . كما يجب أن ندرسها بوعى جديد

ومع أن الحملة الفرنسية على مصر كانت ، من الوجهة التاريخية ، أسبق من الغزو الانجليزى . فقد قدمته عليها . لان الحديث عن هذه الحملة طويل

الانجليز فى الاسكندرية ورشيد

فى يوم الخميس ١٨ من المحرم سنة ١٢١٣ (٢١ يونيو سنة ١٧٩٨م) قدمت خمس وعشرون سفينة انجليزية الى الاسكندرية . ثم نزل عشرة من رجالهاالى المدينة فالتقوا بكبار رجالها . وسألهم السيد محمد كريم ، حاكم الاسكندرية من قبل مراد بك ، عن خبرهم، فأجابوه بانهم يبحثون عن الفرنسيين لانهم قدموابأسطول كبير ، وجيش عظيم . لا يستطيعوا المصريون ان يحاربوه. ثم قالوا : ونحن نكفيكم مؤونة هذه الحرب . فأجابهم السيد كريم بجواب خشن، فأغلظ لهم القول . فعرضوا عليه أن يقفوا فى البحر ، يحرسون المدينة ، وأن يمدهم بالزاد والماء بثمنه ، فرفض . وأقلع الاسطول الانجليزى . وكانت هذه هى المحاولة الاولى ، من الانجليز ، لغزو مصر ..

وبعد ذلك بثمانى سنوات، وكان نابليون قد غادر مصر، وغادرتها الجيوش الفرنسية ، عاد الاسطول الانجليزى ، مرة أخرى ، الى الاسكندرية . ولكنهم فى هذه المرة ، لم ينصرفوا عنها حين ردهم أهلها . بل أطلقوا عليها المدافع ، ودخلوها . بحجة المحافظة عليها من الفرنسيين ..! ويحدد الجبرتى لدخولهم الاسكندرية يوم الخميس التاسع من شهر المحرم ١٢٢٢ (١٩ مارس

١٨٠٧ م) أى بعد ثمانى سنوات هجرية من المحاولة الاولى ..

وكان الانجليز ، فى هذه المرة ، قدموا مصر باستدعاء محمد بك الالفى ، كبير المماليك وزعيمهم فى ذلك الوقت. فقد سافر الالفى الى انجلترا ، وأقام فيها زمنا . وتحالف معهم على أن يسيروا حملة على مصر ، لنصرته على محمد على . وقدم الانجليز بناء على هذا الاستدعاء. وكان الالفى قد سبقهم الى مصر ، ليجمع أنصاره ، ويكمل تسليح جيوشه ، ويمهد لدخول الانجليز . وبعد أن أتم ذلك. قدم الى دمنهور ينتظر جيوشهم . ولكن أهل المدينة حاربوه ومنعوه من دخولها . فلما لم يستطع الاستيلاء على دمنهور ، وطال انتظاره للحملة الانجليزية ، اعتقد انها لن تجيء ، فترك دمنهور قاصدا الصعيد ، ولكنه مات فى الجيزة (١) . وعلم الانجليز بموته . فاتصلوا بأنصاره ، وبزعماء المماليك الذين كان يحاربهم محمد على . واسرع محمد على حين أخبر وهو فى اسيوط بقدوم الانجليز ، فاستعان بالعلماء حتى عقد صلحا مع المماليك . ليفرغ للاقاة الانجليز . وقد كفاه الشعب مؤونة هذه الملاقاة ..

وقد وقف بعض المماليك من مصر ، موقفا كريما ، أوقل هو الموقف الطبيعى ، فأبى أن يحارب الانجليز أو يساعدهم . فقد أرسلوا الى عثمان بك حسن ، وكان معه جيش كبير ، فقال اننى رجل مسلم ، هاجرت ، وجاهدت وقاتلت الفرنسيين . فلا أختم حياتى بمحاربة أخوانى ،

---

(١) تجد تفصيل ذلك وترجمة وافية للالفى فى الجزء الثانى من كتابنا : دراسات فى تاريخ الجبرتى ، مصر فى القرن الثامن عشر ، من ٩٢ ـ ١٠٨ .

والاستعانة عليهم بالاجانب . وكذلك فعل أيضا كبير المماليك ، عثمان بك يوسف

وقد جزع محمد على أشد الجزع ، واستولى عليه الخوف . عندما علم أن الانجليز دخلوا الاسكندرية . فصالح المماليك ، وأجابهم لما شرطوا من شروط . وسار فى طريق عودته من أسيوط الى القاهرة ، متثاقلا ، يتلقف الاخبار . فاذا علم أن الانجليز تقدموا ، ودخلوا القاهرة . سار الى الشام . ولكن الانباء جاءت بما لقيه الانجليز على أيدى أهل رشيد ، فتشجع محمد على ، واطمأن ..

أما جند الدولة ، فانه لما شاع بينهم دخول الانجليز ، داخلهم خوف عظيم ، وتهيأ أكثرهم للفرار ، وأخذوا يستخلصون أموالهم التى كانوا يقرضونها للناس بالربا ، ويستبدلون الدراهم والقروش بالذهب ، ليخف حمله ، عليهم . وتسابقوا الى شراء ادوات الرحيل ، وبيع متاعهم وفرشهم ، وطلق كثير منهم نساءهم ، ليرحلوا الى الشام ، وخرجت طائفة على رأسها حسن باشا طاهر ، من القاهرة الى بولاق . موهمة انها خارجة لحرب الانجليز . ولكنهم تسلطوا على الناس . فاستولوا على حميرهم ، وجمالهم ، غصبا ، وأطلقوا خيولهم فى مزارعهم فأكلتها . ثم انتقلوا بعد ذلك الى منية السيرج ، وشبرا ، والزاوية الحمراء ، والمطرية ، ففعلوا فيها مثل ذلك . وزادوا ، فخطفوا دوابهم ، ومواشيهم ، وفجروا بنسائهم . واغتصبوا أبكارهم . والغلمان أيضا ، أخذوهم فباعوهم ، بعضهم لبعض ..

ويعلق الجبرتى على ذلك بهذه الجملة التى تفيض بالحسرة ، والسخرية : « وهكذا يفعل المجاهدون ..! »

ثم يقول ان بعض الجنود كان يشق المدينة الى بولاق . ثم يعودون متسللين ، ويراهم الناس يخرجون مرة أخرى. ثم يعودون

وكذلك كان أمر الوالى فى القاهرة ، ونائبه ، والخازندار ، والدفتردار ، وأشباه هؤلاء من الحكام . فانهم ، عندما وردت أنباء الغزو ، اكتفوا بأن ابلغوا الى محمد على

أما أهل الاسكندرية ، فقد دافعوا ، عن بلدهم ، وشرفهم ، ما وسعهم الجهد . ثم سلموا فى اليوم التالى . ودخل الانجليز المدينة ، على شروط عقدوها معهم

ولما وصلت هذه الانباء الى أهل دمنهور ، أرسلوا الى السيد عمر مكرم ، زعيم مصر فى ذلك الوقت . يستنجدونه ويبلغونه أن حاكم المدينة أخرج منها جنوده ، ومدافعه وأثقاله هاربا من الانجليز ، وأنه رفض ان يدافع معهم عنها ..

وبعد أيام كانت طلائع الحملة الانجليزية فى رشيد . وكان أهلها فى انتظارهم . يعاونهم جند الدولة . فتركوا جند الحملة حتى دخلوا المدينة ، ثم صبوا عليهم النيران من كل جانب . وضيقوا عليهم الشوارع ، والدروب ، والحارات الضيقة حتى طلبوا من أهل رشيد الأمان ، فأمنوهم وأسروا من نجا من الموت

وكانت شجاعة رشيد . وبطولة أهلها سببا فى اثارة الحماسة عند غيرهم . حتى حاكم دمنهور الذى تركها قبل ان يصلها الانجليز ، عاد اليها ، بعد ما سمع أنباء رشيد . ولقى فى طريق عودته بعض الجنود الانجليز فحاربهم ، وقتل من قتل ، ثم أسر الباقين

وجاء المبشرون بهذه الانباء الى القاهرة. فتلقاها رجالها

الرسميون بالفرح والغبطة . وأمروا باطلاق «الشنك (١)» ابتهاجا . وأباحوا لرجالهم ان يطوفوا على بيوت الاغنياء يطلبون منهم البشارة . اما أهل القاهرة فقد أخذوا فى الاستعداد للمقاومة . وانطلق زعيمهم السيد عمر مكرم ، يأمرهم بحمل السلاح ، والتأهب للكفاح . حتى أنه أمر طلبة الازهر ، وعلماءه ، بترك الدروس والاشتغال بما يشتغل به الناس من أمر الحرب . واجتمع العلماء ، وكبار الجند، فى بيت القاضى ، يتشاورون . ويدعون للالفة والصفاء بين أهل القاهرة والجند . حتى يكونوا يدا واحدة ضد المعتدى . ثم انتقلوا بعد ذلك بأنفسهم ، ومعهم كثير من الناس ، بأسلحتهم ، لاقامة خندق فى طريق الانجليز

وبعد أيام دخل القادمون من رشيد ، ودمنهور بأسرى الانجليز ، وقتلاهم . وكان الكبار من هؤلاء الاسرى يركبون الحمير . وفرح القاهريون بذلك فرحا كبيرا . ثم تواتر ورود المبشرين ، ومعهم الاسرى ، ورءوس القتلى . فكان يطاف بهم فى شوارع القاهرة ويقف الناس لمشاهدتهم فرحين متهللين . ولا يكاد يمر يوم من شهر صفر، فى هذه السنة من غير أن يذكر فيه الجبرتى خبرا من ذلك

ولكن فرح القاهريين بنصر أخوانهم ، وتهللهم عند مسير هذه المواكب من الاسرى ، أو رءوس القتلى ، لم يلههم ولم يقعد بهم عن الاستعداد لملاقاة الغزاة . فقد شرعوا فى تحصين القاهرة . وقام بينهم شعور رائع من التكافل الاجتماعى ، والتساند ، أوجده ، ونماه الاشتراك فى المحنة ، ومواجهة الخطر . فكان أهل اليسار يجمعون العمال ، بعضهم يستأجر المائة ، وبعضهم أقل ،ويدفعون

(١) المدافع التى تطلق للابتهاج، أو التحية

لهم اجورهم ليقيموا الخنادق والمتاريس . والفقراء يعملون بأيديهم . وشرع أهل بولاق فى اقامة حائط فى أسفل قلعة السبتية . اشترك فيه المسلمون وغيرهم ، من الاروام والسوريين ، والقبط والنصارى

وتلقى أهل القاهرة رسالة من السيد حسن كريت ، نقيب الاشراف فى رشيد ، وزعيم المقاومة الشعبية فيها ، وفى هذه الرسالة يقول : ان الانجليز عادوا للانتقام من أهلها ، على ما لقيه جنودهم الذين دخلوها من قتل واسر . وقال : انهم أقاموا استحكاماتهم حول البلدة ، ونصبوا عليها المدافع الثقيلة . فلما قرأ عمر مكرم هذه الرسالة على الناس ، واستنفرهم للجهاد ، حملوا أسلحتهم، وخرج كثير منهم ، من المغاربة ، والاتراك ، تجارا وجنودا ، وأهل الصعيد الذين يقيمون فى القاهرة . وذهب عمر مكرم الى نائب محمد على يستأذن لهم فى السفر الى رشيد ، ومعاونة أهلها . فلم يأذن لهم وقال فلننتظر حتى يعود الوالى لهم ويرى رأيه فى ذلك . ولكن كثيرين من أهل القاهرة سارعوا لنجدة اخوانهم ، ولم ينتظروا اذن الباشا

وتعرض أهل رشيد فى هذه الحرب لاشد المحن . فان الانجليز الذين يحاصرونها هدموا بمدافعهم كثيرا من بيوتها وقتلوا كثيرين . ومن لم يقتل منهم أضناه السهر والجهد وملازمة الحراسة ليلا ونهارا

ثم جاءت بعد ذلك ، لمساعدة أهل رشيد ، وفك حصارها ، جموع كثيرة من اهل مديرية البحيرة ، من قرى ابى منصور ، والحماد ، ودمنهور . ومن أهل القاهرة ايضا . وحارب هؤلاء وهؤلاء حتى أجلوا المحاصرين عن رشيد . ثم ساقوهم أمامهم الى العراء ، فأسروا من بقى منهم ، وغنموا سلاحهم ومدافعهم . وأرسلت هذه الغنائم

ومعها الاسرى ، ورءوس القتلى الى القاهرة فى عدة سفن. فلما وصلت هذه الانباء الى محمد على ، وكان قد عاد الى القاهرة ، أمر باطلاق المدافع من القلعة ، وبولاق والازبكية ، والجيزة ابتهاجا بالنصر الذى احرزه أهل رشيد والبحيرة

وتذكر المصادر الانجليزية أنه قد قتل فى معركة رشيد الاولى ١٨٥ منهم قائد ، وجرح ٢٨١ بينهم جنرال و ١٩ ضابطا . كما خسروا فى معركتها الثانية نحو ٩٠٠ بين قتيل وجريح وأسير . كما قال الجنرال السير جون مور ان هذه الخسائر الفادحة ، وهذه الهزائم ، أدخلت الرعب فى قلوب الجند الانجليز

ولم يحاول الانجليز بعد هزيمتهم فى رشيد مرتين ان يتقدموا . بل فر من نجا منهم الى الاسكندرية . ثم تركوا البلاد الى البحر . ولم يتقدم منهم الى القاهرة الا الاسرى ..

ففى يوم الاربعاء الثالث عشر من شهر صفر ، أى بعد شهر وأيام من بدء الحملة ، وصلت السفن الى ساحل بولاق ، تحمل آخر فوج من أسرى الانجليز ، وقتلاهم ، وجرحاهم ، فلما نزلوا ، مروا بهم من طريق باب النصر ، وشقوا بهم المدينة الى الازبكية ، وقد أحصاهم الجبرتى ، فكانوا أربعمائة وستة وستين أسيرا ، وثلاثمائة وأربعين راس قتيل . وقد رشقت الرؤوس فى نبابيت ، وعلقت فى الازبكية مع من سبقها من رؤوس القتلى . وكان بين الاسرى فى يد الجند كبار الضباط ، ثم يقول : ان من وقع من صغار هؤلاء الاسرى فى يدالجند الاتراك « اختصوا بهم ، والبسوهم من ملابسهم ، وباعوهم فيما بينهم . ومنهم من احتال على الخلاص من يد الفاسق بحيلة !!

وأورد الجبرتى بعض حيل الاسرى الصغار للخلاص من يد جند الدولة ..

ولكى نستطيع الحكم على الاثر الذى أوجدته فى نفوس الشعب ، هذه المقاومة الباسلة من أهل رشيد، ننقل هذه الفقرة التى وصف بها الجبرتى كيف استقبل القاهريون أسرى الانجليز ، ورؤوس قتلاهم . وكيف أثار ذلك حميتهم وشجاعتهم فهو يقول : ان محمدا عليا « تراجعت اليه نفسه ، وأسرع فى الحضور ، وتراجعت نفوس العساكر . وطمعوا عند ذلك فى الانجليز . وتجاسروا عليهم . وكذلك أهل البلاد قويت هممهم . وتأهبوا للبروز والمحاربة ، واشتروا الاسلحة ، ونادى بعضهم بعضا بالجهاد . وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما ، وجمع بعضهم من بعض دراهم ، وصرفوا على من انضم من الفقراء . وخرجوا فى مواكب ،وطبول، وزمور ، فلما وصلوا الى متاريس الانجليز ، دهموهم من كل ناحية . وصدقوا فى الحملة عليهم . وألقوا انفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم. وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير ، والصياح . حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم . فألقوا سلاحهم ، وطلبوا الامان » وكان الجبرتى معاصرا هذهالاحداث ، ورجلا ذامكانة مرموقة فى ذلك الوقت

وهنا يجب أن نلاحظ عدة أشياء . منها أن جند الدولة . وهم المسئولون عن الدفاع عن البلاد ، والمستعدون للحرب ، لم يشتركوا فى رد الانجليز ، وان كان بعضهم خرج مع المصريين المجاهدين . ومنها ان المماليك ، وهم الذين كانوا أهل السيادة ، والثروة ، والجاه . والمتمتعين بخيرات مصر ، وأموالها . لم يشاركوا

أهلها فى رد الانجليز . بل ان هؤلاء قدموا بدعوة كبيرهم الالفى . وكل ما فعله المماليك ، ان بعضهم رفض المعاونة التى طلبها منه الانجليز . ولعل خروج حاكم دمنهور ، ومعه جنده ، واخراجه المدافع ، والاثقال ، عندما قدم الانجليز اليها ، ورفض هذا الحاكم ان يبقى حيث أهلها ــ وقد طلبوا منه ذلك ــ ليحارب معهم . لعل هذا كله كان معاونة للانجليز ، وباتفاق معهم . وقد صالح المماليك محمدا عليا ليتفرغ ، فى ظاهر الامر ، لحرب الانجليز . ولعلهم تمنوا ان يغلبوه . ليبقى لهم حكم مصر ، ولو تحت سيادة الانجليز . كما حكم مراد الصعيد ، تحت سيادة الفرنسيين . ولكن محمدا عليا ، لم يحارب الانجليز ، ولم يتوجه اليهم . وترك مواجهتهم للشعب ليدخر قوته لحرب المماليك

بل ان محمدا عليا لم يكن راضيا كل الرضى ، عن هذه الحماسة الجارفة ، التى أبداها الشعب فى المقاومة . لانه ما كان يرضيه أن يرى شعبا قويا ، متوثبا ، شجاعا، بل كان يريده « رعية » يأمرها فتطيع ، ويتوجه بها حيثما يشاء هواه ، أو تشاء مطامعه . فقد ذهب السيد عمر مكرم ، لحربهم . فقال لهم محمد على « ليس على الصعيد . وتحدثوا اليه فى أمر هؤلاء الانجليز . وطلبوا اليه أن يخرج المصريون والجند ، ومعهم العلماء والسيد عمر مكرم ، لحربهم . فقال لهم محمد على : « ليس على رعية البلد خروج . وانما عليهم المساعدة بالمال لعلائف العسكر » ثم خرج مكرم والعلماء من عنده ، ولم يستقر رأيهم على شىء . فالمصريون وحدهم ، هم الذين دفعوا عن بلادهم عدوان الانجليز ، وهم الذين غلبوهم وقهروهم . على الرغم من هذه الملابسات العجيبة ، الشاذة ، التى كانت فيها بلادهم ، وعلى الرغم من نقص

الكفاية الحربية ونقص الاستعداد . ومما كانوا قد لقوه ، على يد نابليون وجنده ، من حرب ، وتدمير ومصادرة ، واستنزاف للمال والجهد . قبـــل ذلك بسنين قليلة

وعندما انتصرت هذه « الرعية » على الانجليز الغزاة ، وردتهم على أعقابهم . استغل محمد على هـذا الانتصار الى أبعد حدود الاستغلال . فأرسل المبشرين من رجاله الى الدولة يبلغها أنباء هذا النصر . وأرسل مع هـــؤلاء بشرين ، كتابا يصف فيه هذه الحرب مع الانجليز بمـا يشاء . وقطع آذان القتلى من الانجليز فدبغت وملحت ، ووضعت فى صندوق أرسله الى الآســـــتانة ، مع هؤلاء المبشرين . ومعهم أسيران من كبار الاسرى

اما هذا الشعب الذى كافح ، وصبر ، وانتصر . فكان جزاؤه عجبا .. تسلط عليه الجنـــد بالقتل ، والنهب ، والاعتداء . فقد نزل هؤلاء على رشيد ، وما جاورها من البلاد ، بعد خروج الانجليز منها . فاستباحوا أموالها ، ونساءها ، ومواشيها ، قائلين : انها صارت « دار حرب » بدخول الانجليز فيها .. ! ثم أحاط الجند برشـــيد نفسها ، وفرضوا عليها الضرائب والكلف الشـــاقة ، وأخذوا ما وجدوه فيها من الارز ، حتى ترك أهل رشيد بلدهم هاربين ، الى القاهرة . فروا من ظلم الجند . وهم الذين لم يتركوها فرارا من مدافع الانجليز ونيرانهم

وهكذا حارب شعب مصر الحملة الانجليزية ، ولم يمكن لها من دخول البلاد



الحملة الفرنسية

قبل أن نلخص تاريخ هذه الفترة الحاسمة ، فترة دخول نابليون مصر ، وحكمه ، لها ، وما لقى جنده فيها من مقاومة باسلة ، مثابرة ، قوية • نعود قليلا لنذكر شيئا عن حكام مصر عند قدوم الحملة الفرنسية ••

بعد وفاة محمد بك أبى الذهب فى عكا ، سنة ١١٨٩ « ١٧٧٥ » خلص حكم مصر لمراد وابراهيم ، بالاشتراك بينهما . وكان كلاهما من مماليك أبى الذهب

أما ابراهيم فكان غلاما جركسيا • أعتقه سيده أبو الذهب وزوجه اخته • وكان شجاعا ، فارسا ، ساكن الجأش ، صبورا ، فيه حلم وتؤدة ، قريب الانقياد للحق، متجنبا للهزل . وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه . حتى طغوا ، وزاد جبروتهم ، وظلمهم • •

وأما مراد ، فكان قاسيا ، متهورا ، مغرورا بنفسه ، متجبرا ، حاد الخلق ، عصبى المزاج ، ظالما ، غيورا • وكان يجمع الى هذه الصفات ، جهلا فاضحا ، معيبا ، وقصر نظر قل أن وصل اليه واحد من حكام مصر

وقد حكم مراد وابراهيم مصر فترة طويلة • لعلها لم تر فى تاريخها حكما اسوأ منه • ولا حاكمين فى مثـــل قسوتهما ، وجبروتهما ، وظلمهما ، وأنانيتهما وجهلهما

وكانت صفات ابراهيم ، وشخصيته اللينة المتساهلة، كفيلة باطلاق يد شريكه الطاغية مراد • فى أغلب أوقات حكمهما الذى دام نحو ثلاثين سنة

وكان لابراهيم ومراد من النفوذ والسطوة ، ما لم يتح لغيرهما من المماليك • حتى ان الدولة العثمانية أرسلت لحربهما حملة بقيادة حسن باشا قبطان • واستطاع هذا أن يهزمهما ، وأن يستقر فى القلعة بعد هربهما الى الصعيد ولكن الدولة عادت بعد ذلك فأصدرت عنهما عفـــوا • وأمرت حسن باشا قبطان بترك مصر - فى سنة ١٧٨٧ - وأن يسافر لحرب روسيا. وكان لابراهيم ستمائة مملوك، ولمراد اربعمائة . وكان ما يملكه غيرهما من كبار المماليك يتراوح ما بين خمسين ومائتين

ولكن هذه السطوة كلها كانت مسلطة على أهل مصر • حتى تزك كثير من مالكى الارض بلادهم ، وزروعهم ، ومواشيهم ، فرارا من الظلم • وكثرت الاوبئـــة والفتن والمجاعات ، وانعدم الامن • فكان المسافر يستأجر الاعراب لحراسته • وهاجر الفلاحون الى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع • ويأكلون قشر البطيـــخ ، وأوراق الشجر • حتى لا يجد الكناسون شيئا من ذلك يكنسونه•• وأكل الناس لحوم الاطفال ، والخيل ، والحمير ، والبغال وكان هذا شأن الناس فى القاهرة وغـــيرها • أما مراد وابراهيم ، فكانا يعيشان فى قصور زاهرة • وبنى أولهما قصرا شامخا فى الجيزة ، كما بنى غيره فى الروضة ، وجزيرة الذهب ، والعادلية ، وترسا

وكان مراد رجلا جاهلا ، ضيق الافق . يأمر بهدم الكنائس . ويفرض على الاجانب ضرائب باهظة . وكانت سياسته الطائشة نحوهم ، سببا ، أو ذريعة ، اتخذها نابليون للحملة على مصر . وكانت للفرنسيين خاصة متاجر رابحة ، في القاهرة والاسكندرية ورشيد . فأثقل مراد على أصحابها بالمغارم والمظالم ، والمصادرات . حتى كثرت شكواهم الى الدولة فى اسطمبول ، فلم تستطع ان تكف مرادا عن ظلمه لهم . ثم كثرت شكواهم الى حكومة الجمهورية فى باريس . وقد تكون هذه الشكوى متفقا عليها بين هذه الحكومة وبين التجار الفرنسيين ، حتى تكون بعض مبرراتها للحملة على مصر . ولكن الذى لاشك فيه أنه كان لهذه الشكوى أكثر من مبرر وقد أدرك المصريون أنفسهم هذه الحقيقة ، وواجه الشيخ السادات مرادا بها . فقال له بعد قدوم الحملة : « انك بظلمك واعتدائك على الافرنج ، ملكت البلاد للاجانب أى الفرنسيين

ولما علم مراد بقدوم حملة نابليون استهزأ به وبها ، وقال لصديقه قنصل النمسا كيف تخاف هؤلاء الرعاع الذين لا فرق بينهم وبين الواقفين على بابنا .. انهم ليسوا الا « فستق » علق للاكل لا للحرب .. ! وسنقضى عليهم بقوة حرسنا الخاص

هكذا كان يتحدث مراد ، أما موقفه من هؤلاء « الفستق » وحربه معهم فسنعرفه فى موضع آخر من هذا الكتاب

وقد أحسن الجبرتى فى وصف مراد عندما قال انه : « يغلب على طبيعته الخوف والجبن . مع التهور والطيش . والتورط فى الاقدام ، مع عدم الشجاعة »

هذه كانت حال مصر فترة طويلة ، وهذا كان حال حكامها ، عندما قدم نابليون بجيوشه لغزوها



نابليون فى مصر

ينسب الى نابليون أنه قال : « توجد فى العالم قوتان: قوة المادة ، وقوة الروح ، وقوة الروح دائما هى الغالبة »

ولعل هذه الكلمة ـ وقائلها من أعظم رجال القوة المادية الذين شهدهم العالم ـ لم تصدق ولم يؤيدها الواقع ، مثلما صدقت ، وتأيدت ، مع نابليون نفسه ، ومــع جيوشه التى غزا بها مصر • فقد قهرت قوة الروح عند المصريين العزل ، أو ضعاف التسلح ، قوة نابليــــون القاهرة ••

وسنجد تفصيل ذلك فى حديثنا عن المقاومة العجيبة التى لقيتها جيوش نابليون فى الاسكندرية ، عند نزولها فيها ، وفى القاهرة • وفى بلاد مصر وقراها • من دمياط الى أسوان • وسنجد ، عندئذ ، أن المصريين لم يستكينوا يوما واحدا ، ولم يخضعوا لحكم نابليـــــون • بل كانت ثوراتهم عليه ، وعلى قواده من بعده ، دائمة ، قوية متصلة شاملة ، فى مدى السنوات الثلاث التى أقامتها جنوده فى بلادنا ••

وقد أظهر نابليون كل ما فى قدرته من الحيــــــل ،

واستنفد كل ما عنده وعند رجاله من بلاغة فى اللفظ ، وبراعة فى البيان ، لكى يؤثر فى النـــاس ، ويترضى عواطفهم حتى يسالموه • فهو يقول فى منشوراته اليهـــم تارة ، أنه محب للاسلام ، وصــديق دولة آل عثمان .
وتارة أخرى انه عازم « على اقامة مسجد عظيم لا نظير له فى الاقطار ، والدخول فى دين النبى المختار » وتارة انه ما جاء مصر الا ليخلصها من ظلم المماليك • وليجعل خيرها لأهلها . فلا يستأثر به « الاباظة » وغيرهم من الاجناس .
وهو عند احتلاله جزيرة مالطة ، يجد فيها عددا من أسرى المسلمين ، يحتجزهم « فرسان مالطة » فيطلق سراحهم ــ وكانوا سبعمائة ــ منهم التركى ، والمغربى ، والسورى

أطلق نابليون سراحهم ، وامر بأن يعطى لهم اللبـــاس الحسن ، والغذاء الجيد ، وأن يكرموا • واعطـــاهم ما يكفيهم من النفقة ليرجعوا الى بلادهم • واستبقى طائفة منهم تعرف اللغة العربية ليكونوا عيونا له • أرسل فريقا منهم فسبقوه الى مصر ، ليبشروا اهلها برحمته وعدله ، وميله الى الاسلام وحبه أهل مصر ، أو كما يقول نقـــولا الترك : « يبشروا بذلك فى جميع بلدان المســـلمين • ويشكروا بذلك فضل الفرنساوية »

وحرص فى أوامره الى جنوده ، أن يبتعدوا عن مساجد المسلمين • وان يمكنوهم من صلاتهم • وان يحتـــرموا دينهم ، واموالهم • فلا يعتدى أحد من الجند على ما يملك الافراد • وان يدفعوا ثمن ما يشترون منهم • ثم يقول انه خرب كرسى البابا ، فى روما ، لانه كان يحرض على حرب المسلمين

قال نابليون ذلك ، وفعله • يترضى به ، بل يتملق • عواطف المصريين • حتى لا يقاوموه • ولكنهم قاوموه أعنف

المقاومة وأشدها ، لم يكفوا عن ذلك يوما أو بعض يوم

عند ذلك سلط عليهم نابليون وخلفاؤه من بعده ، النار ، والعذاب والقتل والمغارم الفادحة • ولكن القسوة وحرق القرى والبلاد ، والقتل بالجملة ــ حتى قتـــل الاطفال ، والشيوخ ، والنســـاء ــ كل ذلك لم يخف المصريين ، ولم يضعف عندهم شيئا من روح المقــاومة ، والصلابة ، والعناد

فى الاسكندرية ورشيد والبحيرة

عندما علم أهل الاسكندرية أن نابليون نزل جـــزيرة مالطة ، أدركوا أنه قادم اليهم بعد حين . فأســـتعدوا لمقاومته • بتحصين القلاع ، وجمع المتطوعين من أهـــل المدينة ، والبلاد القريبة اليها ، ومن العرب • ولم ينتظروا نجدة مراد بك لهم • فقد كان يقيم فى قصره الفخم بالجيزة يقول ما يقول عن الفرنسيين و « الفستق » ••

فلما ألح عليه السيد محمد كريم ، حاكم الاسكندرية الوطنى ، فى أن يرسل لهم البارود • ارسل اليه قنطارين •• ولم يرسل له هذا القدر المزرى من البارود ، الا بعد أن أرسل كريم له ثلاثة عشر رسولا يستنجزه • وقد ذكر نقولا الترك ، انه كان لا يوجد فى قــلاع الاسكندرية الا قليل من البارود ، أكثره كالتراب ، من طول الايام

وفى ضحى يوم ٢ يولية سنة ١٧٩٨ بدأ الهجـــوم الفرنسى على الاسكندرية ، فقاومه أهلها بكل ما يملكون من قوة ، بمواردهم المحدودة القليلة ، البالغة الضعف • ولكنهم ، مع ذلك ، استطاعوا أن ينالوا منه ومن جنوده• حتى أوشك نابليون نفسه أن يقتل • فقد ذكر مسيو بورين ، سكرتيره الخاص ، انه دخل مع نابليون من حارة

لا تكاد لضيقها ، تسع شخصين متجانبين • فأوقفتهما طلقات الرصاص • التى كان يسددها اليهم رجل وامرأة من احدى النوافذ ، ولم يستطع نابليون المسير ، الا بعد أن هاجم عدد من جنوده المنزل ، وقتلوا الرجل والمرأة .

وجرح ـ جرحا بليغا ـ الجنرال كليبر

كان دفاع اهل الاسكندرية مشرفا ، رائعا • ولكنه لم يكن مجديا ، فهم قلة ، وسلاحهم قليل • وحصونهم قديمة ، تكاد تكون عزلاء • ولم يكن للعثمانيين فى مياهها سوى ثلاث سفن • استأذن قائدها « ادريس بك » من نابليون فى أن يخرج بها الى الاستانة . فأذن له . وكان نابليون فى عنفوان قوته ، وكامل عدته • فقهرت قوته أهل الاسكندرية ، ودخل مدينتهم • ومع ذلك ، فقد ظل فريق من أهلها ، بقيادة محمد كريم ، معتصما بقلعة قايتباى ، يقاتل • ولم يكن هذا الفريق أكثر من عشرين مجاهدا • استطاع ان يعوق طليعة الجيش الفرنسى ،وأن يقتل قائدها • ثم سلم مقهورا

وخسرت الاسكندرية من شهدائها فى هذا الدفاع ، بين سبعمائة وثمانمائة ، قتيل وجريح

شهادة الفرنسيين

وقد شهد الفرنسيون لاهل الاسكندرية بأنهم ابطال ، شجعان » فى مقاومتهم . فكتب الجنرال برتييه ، رئيس أركان حرب الحملة الفرنسية ، فى رسالة منه لوزارة الحربية يقول : « ان الاهالى دافعوا عن أسوار المدينة دفاع المستميت . وقد اصيب فى هذه الموقعة الجنرال كليبر بعيار نارى فى جبهته ، فجرح جرحا بليغا . وأصيب الجنرال منو بضربة حجر اسقطته من أعلى السور

فنالته رضوض شديدة . وأصيب جنرال اسكال بجرح بليغ فى ذراعه من عيار نارى . وقتل اللواء مارس ، وخمسة ضباط آخرون (١)

وكتب الجنرال منو الى نابليون يقول : أن الجنود الفرنسيين واجهوا مخاطر عظيمة : لان الاهالى دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة ، وثبات عظيم (٢).

نزلت جيوش نابليون الاسكندرية يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ . فاجتمع بكبير علمائها الشيخ محمد المسيرى ، وحاكمها المجاهد ، السيد محمد كريم . ثم الف منهما ومن خمسة من اعيان المدينة مجلسا يتولى الحكم فيها . وبعد ايام تركها نابليون ، فى طريقه الى القاهرة . وترك الجنرال كليبر حاكما عليها ، وقائدا لنحو تسعة آلاف من الجنود ، تركهم لحمايتهم

وكان عدد جنود الحملة ستة وثلاثين الفا ، تحرسهم ، وتحملهم مع معداتهم ، وأدوات قتالهم ، ومدافعهم ، اكثر من ثلثمائة سفينة نقل . وخمس وخمسون سفينة حربية ، منها ثلاث عشرة بارجة (٣) . وعند استيلاء نابليون على

---

(١) ، (٢) ص ١٧٩ جزء أول من تاريخ الحركة القومية . للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، الطبعة الأولى

(٣) ذكر المعلم نقولا الترك أن عدد السفن كان ٤٥٠ وأن عدد رجال الحملة كان ستين ألفا ، منهم ستة وثلاثون ألفا من المحاربين . والباقون من الصناع ، والبحارة

أما نقولا الترك هذا ، أو نقولا الأرمنى ، فيؤخذ من الترجمة الفرنسية لكتابه ، ومن مصادر أخرى ، أنه ابن يوسف الترك ، ولد فى سنة ١٨٦٣ فى دير القمر بلبنان . وأصل أسرته من يونانيى القسطنطينية . هاجرت الى جبل الدروز واعتنقت المذهب الكاثوليكى . وكان المعلم نقولا يشتغل بخدمة الامير بشير الشهابى الكبير . فارسله الامير الى مصر قبيل الحملة الفرنسية عليها ليطلعه على أخبارها . ويقول بعض ←

مالطة ، وجد فيها ١٢٠٠ مدفع . فاستولى عليها وأضافها الى مدافعه . كما وجد فيها قدرا كبيرا من الذخيرة

وكانت سـفينة القائد نابليون ، التى سـماها « الشرق » ـ ويسميها الجبرتى « نصف الدنيـا » ـ تحمل مائة وعشرين مدفعا

ولكن هذه القوة الجبارة ، التى لم تر مصر مثلها من قبل ، لم ترهب أهلها ، ولم تخفهم . فـلم تمض أيام ، أفاق فيها أهل الاسكندرية من بغتة المفاجأة والتسليم . حتى بدءوا ينظمون صـفوفهم للمقاومة . ويأخـذون أهبتهم لحـرب سرية أعلنوها على الغزاة ، وابتدعـوا من صنوفها طرائف كثيرة ..

لم تمض عشرة ايام على دخول نابليون الاسكندرية ، حتى بدأت هذه المقاومة السرية . فقتل أحد جنـود

المؤرخين : انه أقام فى دمياط ثلاث سنين ـ المدة التى أقامها الفرنسيون فى مصر ـ وكان يراسل الأمير بشيرا بأخبار نابليون وحملته ، لأن الأمير كان يتوقع غزو نابليون الشام . فلما خرج الفرنسيون من مصر عاد نقولا الى دير القمر ، وكف بصره فى آخر عمره . فكان يملى على بنته ما يريد أن يكتب

وقد وضع نقولا كتابه « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية » وطبع فى دار الطباعة السلطانية بباريس سـنة ١٨٣٩ وطبعت معه ترجمته الفرنسية بعنوان « تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر » ترجمة مسيو ديجرانج اينيه . ثم طبعه مرة أخرى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى القاهرة فى سنة ١٩٥٠ بتعليقات للمسيو جاستون فيليب . وهذه الطبعة تزيد عن الاولى ، وتنتهى حوادثها الى أغسطس سنة ١٨٠٤ وتتحدث عن مقدمات عهد محمد على

ونقولا الترك واضح الميل بل التعصب للفرنسيين . له كتاب شعر مضحك فى مدح نابليون والاشادة بكفايته وشجاعته ، وشعر فى رثاء الجنرال كليبر . لذلك نجد لشهادته ـ التى سنذكرها فى مكانها ـ قيمة كبيرة،فيما يتعلق بمقاومة المصريين لنابليون وحملته ،واستبسالهم فى هذه المقاومة . لأنها شهادة ليس من الهين عليه الاعتراف بها

الاسطول الفرنسي فى أحد الشوارع . وفى الوقت نفسه ألقى فى البحر خادم لاحد الضباط وغرق . وغضب كليبر لهذه الحوادث أشد الغضب . فاعتقل بعض اعيان المدينة، واستدعى حاكمها السيد محمد كريم ، والقاضى الشرعى وغيرهما فطلب اليهم البحث عن القتلة . وهددهم بشنق من تقع عليه القرعة من المعتقلين ، اذا لم يسلم له القتلة فى خمسة ايام . ولكن ذلك كله لم يجد نفعا . فقد تستر الناس عليهم حتى هربوا . وعرفوا فيما بعد ان السيد محمد كريم كان عونا لرجال المقاومة السرية

وبعد ذلك بأيام ، أراد الجنرال كليبر ان يسير كتيبة الى بعض البلاد فى البحيرة . فلم تجد هذه الكتيبة ، فى اليوم الذى حدد لسفرها ، ما تحمل عليه اثقالها ، وأزوادها ، وماءها ، من الابل . لان أهل الاسكندرية وما جاورها ، اخفوا ابلهم وهربوها ، حتى لا يستعين بها الفرنسيون . وسارت الكتيبة بلا ماء . وبعد يوم واحد من سفرها ، ظهرت الابل فى الاسكندرية . وعندما سافرت كان العرب يهاجمونها فى الطريق ، ويعرفون سيرها ، وطريقها ، وغايتها . وظهر للفرنسيين أن المهاجمين كانوا على اتصال برجال المقاومة فى الاسكندرية

ولما وصلت الكتيبة الى دمنهور . وجدت ستة آلاف من المصريين على استعداد للاقاتها . فهابت ان تحاربهم . ولم تتم سيرها ، بل رجعت الى الاسكندرية بعد أن فقدت عددا غير قليل من رجالها . وسجل قائدها الجنرال ديموى ، غضبه وسخطه على الروح العدائية التى لقيها من الجميع فى الاسكندرية والبحيرة

وكان الماء ، فى ذلك الوقت ، لا يجرى فى ترعة الاسكندرية « المحمودية » الا فى زمن الفيضان . فكان

الناس يستقون هم ودوابهم ، من الآبار . فأتلف المجاهدون هذه الابار فى طريق الفرنسيين . وسببوا لهم بذلك مشقة عظيمة ، ومتاعب جمة . وعلم الفرنسيون أن أهل قرية « بركة غطاس » سدوا مجرى الماء فى الترعة فأحرقوها ونهبوها ..

وكما وقف رجال المقاومة بالمرصاد لجنود نابليون، يعتدون عليهم ، ويقتلونهم حيثما وجدوهم . وقفوا كذلك لرسله، يتصيدونهم ، ويفتكون بهم

أرسل نابليون رسالة من القاهرة ، الى الجنرال كليبر فى الاسكندرية ، مع الكابتن جوليان . يأمره فيها بالقبض على السيد محمد كريم . فلم تصل اليه الرسالة لان رجال المقاومة قتلوا الكابتن جوليان فى طريقه اليها

وخرجت سفينة فرنسية من رشيد ، يحمل قائدها رسالة أخرى من كليبر الى نابليون . فلم تكد تبتعد عنها قليلا، حتى هاجمها اهالى مطوبس، وادفينا فأرغموها على العودة الى رشيد . ثم خرجت مرة أخرى الى وجهتها . ولكن الفلاحين اطلقوا عليها نيرانهم من جانبى النيل ، حتى أرغموها للمرة الثانية على العودة . واعدم الفرنسيون بالرصاص عمدة أدفينا

وكان المماليك عندما علموا بنزول نابليون الاسكندرية، قد تركوا مدينة رشيد ، هاربين ، تركوها بلا سلطة ، ولا حماية ، فأقام اهلها حكومة منهم ، من ثلاثة أعضاء . تولت الامر فى المديرية — وكانت رشيد مديرية فى ذلك الوقت — ولم تكف هذه الحكومة الاهلية ، ومعها الاهالى، عن مقاومة الفرنسيين . واثارة المتاعب فى طريقهم ، والانقضاض عليهم . فلم تكن سلطة الجنرال دوجا ، حاكم رشيد ، تتعدى حدود المدينة نفسها

وقام الجنرال منو برحلة ، ومعه بعض قواده ، وكتيبة من الجند ، فلما وصلوا بلدة «شباس عمير» وجدوا أهلها متحصنين بالابراج ، وبدءوا يطلقون عليهم النـــــار . فقتل من الفرنسيين عدد غير قليل ، واصابت رصاصـــة جوادالجنرال منو. واشتدت مقاومة المجاهدين حتى لم ير منو سبيلا للغلبة عليهم الا باحراق البلدة فأحرقها ليلا، وكان الفلاحون قد تجمعوا من القرى المجاورة لنصرة شباس عمير .. حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف . فلما رأى الجنرال منو ذلك تسلل عائدا الى رشيد ، ولم يتم رحلته

وخرجت سرية فرنسية تحمل بريد القائد الى نابليون فى القاهرة ، فهاجمها أهل قرية « السالمية » ــ مركــز فوة ــ وقتلوا ثمانية من رجالها . فعاقبها الجنرال منـــو بقتل جميع من يحمل السلاح فيها . ومصادرة سكانها فى مواشيهم ، ثم أضرم النار فيها . وكان من ابطـــال هذه القرية الذين أعدمهم الفرنسيون ، عمدتهـا الشيخ سلامة العقدة

ومن قرى الغربية ، التى كان لها قسط كبير فى شرف المقاومة، برنبال ، والقنى ، والسعدة ، ومطوبس

وقد أزعجت نابليون هذه المقاومة التى أبداها أهـل رشيد والبحيرة ، والغربية فأرســـل اليها ١٥٠٠ جندى تعزيزا لحاميتها ، وأمر قائده فيها أن يغلظ لهم العقاب، وأن يأخذهم بالصرامة والقسوة

هذا هو نصيب المصريين من اهل الاسكندرية ورشيد والبحيرة والغربية، أو بعض نصيبهم من المقاومة الشعبية. أما الحرب فقد اتفق مراد وابراهيـــــم على أن يقف أولهم فى وجهه نابليون عند دمنهور ، ثم كانت بينهمـــا موقعـــة شبراخيت المعروفة ، التى هـزم فيها مراد .

أو كما يقول الجبرتى « داخله الرعب » ، وولى منهزما ، وترك الاثقال والمدافع »

وقد ذكر بعض المؤرخين أن جيش مراد فى هذه الموقعة كان عشرين ألفا ، وذكر بعضهم انه كان اثنى عشر الفا ، كان منهم تسعة الاف من الفلاحين والعرب . والباقون من المماليك . فهم : الفلاحون والعرب ، على أقل تقدير ، كانوا قريبا من نصف الجيش ، أو كثرته الغالبة على التقدير الاخر . وهو أوثق

أما من قعد به العجز أو المرض عن هذه الموقعة . أو فقد السلاح . فكان يسير خلف الجيش الفرنسى يقتنص من يستطيع اقتناصه من جنود المؤخرة ، فيقتله ويجرده من سلاحه . أو يقصد الى بئر فى طريق الفرنسيين فيسبقهم اليه ويلقى فى مائه ملح النطرون، حتى لا يستقوا منه . أو يتطوع لنقل الرسائل الى المجاهدين ، وزعماء المقاومة ، فى البلاد التى تقع على طريق نابليون الى القاهرة ..

وقد ازعجت نابليون أيما ازعاج ، أنباء هذه المقاومة السرية ، فأمره ، زيادة على ما أوقعه بأهل رشيد والبحيرة والغربية ، بأن يعلن استياءه من سلوك أهل الاسكندرية خاصة . وأن يسلموا جميع سلاحهم ، ومن لم يسلمه فى ثمان وأربعين ساعة ، فجزاؤه الاعدام ، كما امر بهدم منزل المتهم بقتل جندى الاسطول ، وارتهان خمسين رجلا من الاهالى ، الى ان يحسن أهل المدينة سلوكهم ، وكان نائبه على الاسكندرية ، الجنرال كليبر ، فرض على اهلها ضريبة قدرها مئة وخمسون الف فرنك . فزادها نابليون الى الضعف

نابليون في القاهرة

لا اريد ان أؤرخ الوقـــائع التى جـــرت بين نابليون والمماليك ، ولا بينه وبين جند الدولة العثمانية . ولا ان أدون تفاصيل هذه الحروب والاحداث الجسيمة فى تاريخنا بل أكتب هذه الصفحات لاسجل ، فقط ، كفـــاح شعبنا وعناده ، وصلابة عوده . أمام هذه الاحـــداث الجسام ، التى كانت فوق طاقته ، وأعظم ، الى حـــد كبير ، من قدرته وجهده . ولكنه لقيها بقلب شجاع . وصمد لها كما يصمد القوى الجلد أمام الخطوب والنكبات . يؤدى فيها واجب الرجولة والشرف ، مهما تكن النتائج ، ومهما يلق فى سبيل هذا الواجب من محنة وشقاء

وما من شعب من شعوب الارض الا لقى مثل هـــذه الخطوب والاحداث الجسام التى تفوق طاقته ، وتعـــلو على قدرته وجهده . ثم هزم أمام هذه الخطوب والاحداث . ولكن الشعب العزيز الكريم ، هو الذى يواجه جســـيم الاحداث وعظيم الكوارث بالقلب الشجاع القوى ، والايمان والصلابة التى لا تعرف الا الواجب ، وما يقتضيه الشرف والرجولة . ثم لتكن النتائج ما تكون . وهى عنـــد ذلك لا تكون الا خيرا . ولو طال عليها الامد

وكذلك كان شعب مصر ، عندما نزل عليه نابليون وجنده فى القاهرة . « حضر العلماء ورؤوس الناس ، وأعملوا رأيهم فى الحادث العظيم . فاتفق رأيهـــم على عمـــل متاريس من بولاق الى شبرا . وكان العلمـــاء يجتمعون بالازهر كل يوم ويقرءون البخارى وغيره من الدعوات . وكذلك مشايخ الفقراء من أرباب الطرق وأطفال المكاتب . ويذكرون الاسم اللطيف ، وغيره من الاسماء . وجـــلس مشايخ العلماء بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون الى الله بالنصر »

وترك الناس الشيوخ والعلماء والاطفـــال ، يقـرءون ويستفيثون . وأخذوا يتنادون بالنفير العام ، يخرجـون فى كل يوم لاقامة المتاريس . فكانت كـل طائفة من أهل الصناعات ، يجمع بعضها المال من بعض ، وينصبون لهم خياما • أو يجلسون فى مسجد أو مكان خرب، يتدراسون أمر الدفاع عن مدينتهم ، وينظمون كيف تنفـــق هـــذه الاموال فى شراء السلاح ، وتجهيز الجنـــــد ، وملبســـهم وغذائهم • وتطوع القادرون بالانفاق على غير القـادرين • ومنهم من جهز جماعة للحرب ، فاشترى لهم ســـــلاحهم وطعامهم « بحيث ان جميع الناس بذلوا وسعهم ، وفعلوا مافى قوتهم وطاقاتهم . وسمحت نفوسهم بانفاق أموالهم، فلم يشح فى ذلك الوقت أحـــــد بشىء يملكه • » وخلت القاهرة من القادرين على حمل السلاح ، فقد ذهبوا جميعا الى بولاق للدفاع عن القاهرة

وصعد السـيد عمـر مــكرم ، نقيب الاشراف وزعيم الشعب ، الى القلعة • فأنزل البيرق النبوى ، فســـار به المتطوعون فى شوارع القاهرة يثيرون بذلك حماسةأهلها ، فلما مروا به من القلعة الى بولاق ، خرج القـــادرون من الرجال جميعا يتصايحون بالحرب • ولم يبق فى القاهرة غير النساء والاطفال وضعفاء الرجال الذين لا يقدرون على الحــركة ••

وقدم الى القاهرة كثير من عرب البحـيرة والجيـــزة والصعيد ، والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنـــادى ، فسارعوا الى معسكر مراد بك

كان أهل القاهرة اذن ، وكثيرون من خارجها ، متهيئين للدفاع عنها ، وبذل ما يملكون من قوة وحول لحــــرب عدوهم ، ولكن مرادا وابراهيم ومن معهما من المماليك •

لم يكونوا جادين فى حربهم أو دفاعهم . واجتمع الى ضعف عزيمتهم ، جهلهم بالحرب الحديثة التى كان يتبعهـــا نابليون . وجهلهم كذلك بما جد من آلات القتال فى ذلك الزمان ..

ويكفيك لتدرك سريرة المماليك وحقيقة شعورهم ، أن تعرف أنهم منذ عرفوا أن نابليون نزل الاســـكندرية ، شرعوا ينقلون متاعهم من بيوتهم فى القاهرة ، ويخفونهـا فى بيوت أتباعهم ، أو فى خـارج المدينـــة . وكانوا لا يستحون من فعل ذلك أمام الناس . أما العثمانيون وعلى رأسهم بكير باشا الوالى ، فلا يكاد يذكـــر لهم شأن فى الدفاع عن القاهرة

وهزم مراد فى موقعة امبابة ، أو الاهرام . بعد ساعة أو بعض ساعة من بدئها . ثم أسرع بالهرب الى بيتـــه فبقى فيه خمس عشرة دقيقة ، أخذ فيها ما اســـتطاع أن يأخذ ، من أمواله وجواهره . ثم فر الى الصعيد

أما ابراهيم بك ، ومعه الباشا التركى، فقدترك المعركة عندما رأى هزيمه مراد ، وفر الى خارج القاهرة ، فلمـــا وصل الى العادلية « انوايلية الان » أرسل فأخذ حـريمه . ثم سار الى الشام . فابراهيم اذن لم يشترك بأقل مقدار فى الدفاع عن القاهرة . وقد أثارت هذه الخيانة شـــعور الناس ، فنهبوا بيوت مراد وابراهيم ، وغيرهما من كبار المماليك . عندما علموا أنهم فروا (١)

وقد كان المماليك فى جيش مراد عشرة آلاف . وكان معهم أربعة وعشرون الفا من المصريين ، وعدة آلاف من الفرسان العرب . قتل منهم ، بشهادة نابليون ، ســبعة

(١) يقول الجبرتى فى « مظهر التقديس » ان فرقة الارنؤود التى قدمت من دمياط هى التى ثبتت حتى قتل معظم رجالها

آلاف • وشهدت المصادر الفرنسية بماأبلى هؤلاء المصريون فى هذه الموقعة • على الرغم من ضعف السلاح ، وسوء القيادة ، وفقدان النظام • فذكر الجنرال برتييه أن قرية امبابة ، دافع عنها ألف وخمسمائة مملوك ، ومثلهم من الفلاحين ، دافعوا عنها دفاع الابطال ورفضوا التسليم • فماتوا قتلا وغرقا • وقد شهد الجنرال برتييه الموقعة الى جنب نابليون

وذكر ريبو ــ أحد مؤرخى الحملة ــ أنه كان فى امبابة أثنا عشر ألفا من الفلاحين ، معهم أربعون مدفعا • وكان منهم كثير من العرب ، والاقباط ، والاحباش

وقال لاجونكيير ــ أحد قواد الحملة ــ ان خسائرالاهالى فى موقعة الاهرام كانت عظيمة • حيث غرق معظمهم فى النيل

القاهرة بعد الهزيمة

استسلمت القاهرة ، بعد فرار المماليك ، للجنرال ديبوى ، فدخلها قبل نابليون ونزل فى بيت ابراهيم بك الصغير • ودخل نابليون القاهرة بعده بيوم واحد ، يوم ٢٤ يوليو سنة ١٧٩٨ ، بعد أن قصده العلماء مستشفعين يطلبون الصلح ، وسكن منزل محمد بك الالفى ، على بركة الازبكية • وكان الالفى قد أتم بناءه قبل ذلك بقليل • وزخرفه بالزخارف الرائعة • وجلب اليه أفخر الرياش • فأنفق فى ذلك أموالا طائلة • فكأنه كان يفعل ذلك كله لنابليون خاصة • ومكان هذا القصر كان فندق « شبرد » الذى احترق أمام حديقة الازبكية

وقد وصف الجبرتى ــ وكان يقيم فى القاهرة يومذاك ــ شعور أهلها، ووقع هذه الهزيمة فى نفوسهم، وما أصابهم من

حزن وقلق ، وصفا مؤثرا شيقا يثير الحزن والغصة والمرارة • ثم وصف فرار القادرين من سكانها، واستكانة العاجزين واستسلامهم لقضاء الله • ثم وصف ، فيمرارة وحزن ، ما لقيه الهاربون من سطو اللصوص والاعراب عليهم ، وسلبهم جميع ما معهم من مال ومتاع • وتجريدهم مما يلبسون من ثياب • ثم يقول « ان الاموال والذخائر التي خرجت من مصر فى تلك الليلة ، أضعاف ما بقى فيها بلا شك »

وبدأ نابليون ، بعد استقراره فى القاهرة ، يداهن المصريين ، ويتودد اليهم ويتملقهم • فأمر بأن ينشأ ديوان لحكم مصر ، حتى يوهمهم بأنهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وجعل أعضاءه عشرة من كبار العلماء ، برياسة الشيخ عبد الله الشرقاوى • وضم اليهم القاضى ، ونائب الوالى العثمانى ـ الذى عاد بعد أن فر مع ابراهيم بك ـ وبعد أن عاد نابليون من مطاردته لابراهيم بك فى بلبيس ثم الصالحية • تجددت له المناسبات ليزيد فى مداهنة المصريين وملقهم • فلما حل وفاء النيل ، فى ١٧ أغسطس من تلك السنة ، أمر بأن يجرى له احتفال رائع يفوق ما كان يقام فى عهد المماليك • وصف جنوده من الفرنسيين بمحاذاة النيل • وحضر بنفسه ، وحوله قواده ، فجلس والى جانبه نائب الوالى ، وقاضى القضاة وأعضاء الديوان ووجوه أهل القاهرة ، أو من بقى منهم • وأطلقت المدافع ، وزينت السفن التى تسير فى النيل • ولكن الناس لم يبتهجوا بذلك ، ولم يشاركوا فيه

ثم جاءت مناسبة أخرى ، وهى ذكرى مولد النبى الكريم ، الذى وافق يوم ٢٤ أغسطس • فأمر نابليون السيد خليل البكرى بأن يقيمه على أبهج صورة • وأعظم

عناية ، وأعطاه ثلاثمـــائة ريال لينفق منهـــا على ذلك • واشترك افراد الجيش الفرنسي فى المولـــد بطبولهـــم وموسيقاهم وألعابهم • وذهب نابليون بنفسه الى منــزل البكرى فألبسه خلعة النقابة على الاشراف ـ بدلا من السيد عمر مكرم الذى هاجر الى الشام ـ وشـــهد نابليون فى منزل البكرى الليلة الختامية للمولد ، واستمع الى حفــلة الذكر من أولها الى ختامها • ثم تناول عنده طعام العشاء ، على صحائف من الفضة

فعل نابليون ذلك وغيره ، ليرضى عنه المصريون • ولكنه من ناحية أخرى ، فرض على أهل القاهرة ٢٤٠ ألف جنيه، على أن يردها اليهم ـ كما يقول الجبرتى ـ « عندما يروق الحال ، ويتسع المجال» . وسلط جباته على نساء المماليك حتى يفتدين أنفسهن بالمال • فأخذ من السيدة نفيسة ، زوجة مراد بك ، وحدها أربعة وعشرين ألف جنيه • كما أخذ أموالا طائلة من غيرها من نسائهم • وفرضوا ضرائب أخرى على أهل الحرف والصناعات ، وأخـــذوا يفتشون البيوت يستخرجون منها مخبآتها من الامـــوال والودائع والسلاح ، ويستعينون بالخدم على معرفة أسرار أسيادهم• ويستولون على الخيل والجمال ، والحمير والابقار والثيران، أو يدفع أصحابها فدية • فأخذوا من ذلك شيئا كثيرا •

وأخذ نابليون فى سبيل تحصين مواقعه ، يهدم كثـيرا من البيوت والارصفة والمساجد أيضا • ويدك أبواب القاهرة ومساطبها • وسلط على أهل القاهرة رجلا أجنبيا هـــو برطلمين • وكانت العامة تسميه فرط الرمان ـ كان أصله مدفعيا عند محمد بك الالفى ، وله حانوت فى شـــارع الموسكى يبيع فيه قوارير الزجاج • وكان هذا الرجــــل معروفا بحقده على المصريين ، وشدة كراهته لهم • فاختاره « كتخدا مستحفظان » أى نائبا لمحافظة القاهرة

كما أمر نابليون بأن يضع المصريون جميعا شـــارة الجمهورية الفرنسية على صدورهم أو رؤوسهم • فـأبى أكثر الناس ذلك • ولبسها فريق منهم ليدخل عليهم اذا كان له عندهم شأن • وأراد نابليون أن يلبس أعضـــاء الديوان طيلسانا بألوان هذه الشارة • فلما وضـعه على كتف رئيسه الشيخ الشرقاوى ، ألقاه على الارض غاضبا محتدا ، ولم يعبأ بثورة نابليون عليه

التحفز للثورة

لم تجد وسائل نابليون فى ترضى المصريين شـيئا • وبدءوا بعد أن أفاقوا من أثر الهزيمة التى جلبها عليهـم المماليك ، يجمعون قوتهم، ويثوبون لرشدهم ، ويتحفزون للثورة • وألهبت هذه المظالم وهذا التحـدى شـعورهم بالغضب • وجاءتهم أنباء موقعة أبى قير البحـرية التى حطم فيها أسطول نابليون ، فى أول أغسطس ، فقوت من عزيمتهم • •

وقد ذكـر الجبرتى قصة طريفـة ، تدل على حقيقة الشعور الذى كان يجده عوام القاهرة فى نفوسهم نحـو نابليون • فهو يقول : « ان نابليون وهو يخرج من بيت الشيخ السادات فى المشهد الحسينى ، مـر بعسـكره وحاشيته فى زحمة الناس » وهم يلغطون ويخلطون • فلما نظروه ، وشاهد هو جمعيتهم ، داخله أمر من ذلك فصاحوا بأجمعهم وقالوا بصوت عال : الفاتحة • فشخص اليهـم وصار يسأل من معه عن ازدحامهم ، فلطفوا له القـول • وقالوا انهم يدعون لك •••! » فهؤلاء الناس من أهـل القاهرة ، وقد شاهدوا نابليون بينهم فى حى الحسين ، يريدون أن يظهروا سخطهم عليه • ولكنهم يعلمون أنه لا

حول لهم ولا قوة· وهو صاحب الحول والقوة · فلا يجدون متنفسا يعبرون به عن سخطهم وغضبهم الا هذه الاشارة اللطيفة ، التى تفصح عما يريدون ، ولا تجلب عليهم ضرا ولا شرا · وهى قراءة الفاتحة · فلم تفارق أهل القاهرة فى ذلك لباقتهم ولا ظرفهم · وقد أحس نابليون من نظـراتهم وأصواتهم ، بدخيلة نفوسهم · ولكن مرافقيه هونوا عليه ذلك · وقالوا ان القوم يدعون له ··· »

وكان شخوص نابليون بنفســه الى منزل الشــيخ السادات ، فى وقت غير ملائم ، وبلا موعد ، أمرا ذا دلالة أيضا · فقد نقل الى نابليون أن رسائل وردت من ابراهيم بك تدعو أهل القاهرة للثورة ، وكان السادات شيخا ذا مكانة كبيرة ، وممن نقل اليه أنهم تلقوا رسائل ابراهيم · فكان ذلك سببا لقلق نابليون وخوفه ، حتى شخص بنفسه بعد الظهر ، الى منزل الشيخ · ليسأله حقيقة الامر

وبدا شعور المصريين واضحا أيضا فى موقفهم السلبى ازاء نابليون ، فانهم لم يشاركوا فى مهرجان وفاء النيــل الذى أشرنا اليه ، ولم يشاركوا فى حفلات المولد النبــوى أيضا ، على الرغم من مجاملة نابليون لهم فيه ، وعنــايته الفائقة به · وكذلك لم يشاركوا فى تلك الحفلات البهيجة التى أقامها بعد ذلك لمناسبة عيد الجمهورية الفرنسية ، يوم ٢٢ سبتمبر من تلك السنة · وأمر بأن تظهر بمظهر غاية فى الفخامة والعظمة ، بل ان أهل القاهرة أيضــا اتخذوا من هذه الحفلة مادة لسخريتهم المعروفة · فقــد أقام الفرنسيون عمودا عظيما فى وسط بركة الازبكية ، التى نابليون تحت قاعدته خطبة ، وسموه شجرة الحرية · ويقول نقولا الترك فى ذلك : «أما أهالى مصر فكانوا يقولون

ان هذه اشارة « الخازوق »الذى أدخلوه فينا ، واستيلائهم على مملكتنا ٠٠٠ ! واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر٠ وحينما رفعـــوه ، اســـتبشرت أهل مصر ، وابتهجت بالفرح (١) »

ومما يدل على ذلك أيضا ، ما أظهروه من الفـــــرح والتشفى ، عندما وردت اليهم أنباء معـــركة أبى قـــير ، وتحطيم الاسطول الفرنسى فيها ٠ حتى أغاظ هذا الفرح نابليون ، وقتل بسببه بعض القاهريين

ونستطيع أن نذكر فى باب المقاومة السلبية ، ما فعله الشيخ السادات ، من عدم قبوله عضوية الديوان بعـــد انتخابه له ، وصدور أمر نابليون بتعيينه . مـــع أنه كان أعظم العلماء شأنا فى ذلك الوقت . وكان نابليون يقبـــل شفاعته ، ويزوره فى بيته ، فكان هذا الموقف منه اباء عن الاشتراك فى الحكم تحت امرة نابليون . ويدل على هـــذه النية أيضا ما بدا منه ضد الفرنسيين ، فى ثورة القاهرة عليهم ، كما نرى ذلك فيما بعد

كانت نفوس الناس فى القاهرة على هـــذه الحال ، من التحفز ، والسخط ، والكراهية المـــكبوتة للفرنسيين . وجاءهم نبأ اعدام السيد محمد كريم ، حاكم الاسكندرية وزعيمها الوطنى ، فزاد من سخطهم وغضبهم وكراهيتهم وهيأ هذا الشعور المكبوت للانفجار

---

(١) ص ٤٥ من كتاب : « ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار العربية والشامية » طبع باريس سنة ١٨٣٩



ثورة القاهرة الأولى

بدأ أهل القاهرة يتجمعون للثورة ، ويتحفزون للوثوب على جند نابليون ، حتى أنطلقت ثورتهم الجارفة يوم ٢١ اكتوبر . أى بعد اقل من ثلاثة اشهر من هزيمتهم

يقول دى لاجونكيير : « كانت الدعـــوة الى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين ، فيدعون الى الله والى الثورة على المآذن ، صباح مساء . فبلغ تهييج النفوس أشده ، حتى لتكفى حادثة واحدة لتضرم بركانالهياجالقومى (١)»

ويقول الجبرتى « .. فتجمع الكثير من الفوغاء ، من غير رئيس يسوسهم ، ولا قائد يقـــودهم . وأصبحوا يوم الأحد ــ ٢١ أكتوبر ــ متحزبين ، وعلى الجهـــاد عازمين . وأبرزوا ما كانوا اخفوه من السـلاح ، وآلات الحرب والكفاح . ولهم صياح عظيم ، وهول جسيم . وكذلك اجتمع بالازهر العالم الاكبر »

---

(١) ص ٢٨٤ جزء « ١ » من تاريخ الحـركة القومية للاســتاذ عبد الرحمن الرافعى

وسجل نابليون فى مذكراته أنه كانت هناك « لجنة للثورة » تنظم شئونها ، وتجمع المتطوعين ، وتسلحهم . وأن الشيخ السادات كان رئيس هذه اللجنة ، كما ذكر فى تقرير له ان هذه اللجنة كانت تجتمع فى الازهر

ويقول نقولا الترك ان عالما من رجال الازهر خرج قبل الثورة بيوم ، ينادى فى شوارع القاهرة بأن يتجمع الناس فى الازهر للحرب ، وقد قتله الفرنسيون فيما بعد .. وقدرت بعض المصادر الفرنسية عدد الثائرين الذين تجمعوا فى الازهر بخمسة عشر الفا

كانت الدعوة الى الثورة اذن من الازهر ، وكانت قيادتها من رجاله ، وفى داخله . فلما جاء وقت العمل ، تجمع الناس فى الشوارع المحيطة به ، وقصدوا الى بيت القاضى التركى ، ابراهيم افندى أدهم ، أو « جقمش زاده » كما يسميه الجبرتى ، فطلبوا اليه أن يذهب معهم الى نابليون . فأطاعهم القاضى ، ثم رأى أن الجماهير تتكاثر . وأن ثورتها قوية جارفة ، فتركهم بعد أن ركب فرسه ، فضربه الثائرون بالعصى والحجارة ، ونهبوا منزله . ثم ساروا فى طريقهم

وبعد قليل التقى بهم الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة الفرنسى ، فأراد أن يفرق جمعهم بالقوة ، عند باب القصرين ـ بالنحاس ـ ولكن الثائرين اطبقوا عليه من كل جانب . وما ان أطلق عليهم برطلمين الاجنبى أول رصاصة ، حتى اخذوا ديبوى رجما بالحجارة وضربا بالعصى وطعنا بالسيوف والرماح . حتى أثخنوا جسمه بالجراح ، وأصابوا ياوره الكابتن مورى . ومات ديبوى بعد قليل .. بضربة رمح فى ثديه

وسمع نابليون انباء الثورة وقتل قائده الجنرال ديبوى، فجاء الى حيث يرى بنفسه . وأراد ان يدخل القاهرة ـ قادما من الجيزة ـ من جهة مصر القديمة ، فلم يستطع، لتجمع الثائرين . فدخلها من باب اللوق . حيث كانت الثورة على أشدها . واختار نابليون الجنرال بون خليفة لديبوى ، وأمره أن يحبط الثورة بأى ثمن . وانتهى اليوم الاول للثورة . بعد أن جرت فيه مواقع عديدة بين الثائرين والفرنسيين فى احياء القاهرة

ثم جاء اليوم الثانى وقد اصبح الازهر ، مقر القيادة يعج بالثائرين واحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة اليه بالمتاريس ، كما اخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة ، وقمعها . وطلب القائد الجديد « بون » الى نابليون أن يأذن له فى اتخاذ أقسى الوسائل ، وأشدها صرامة مع الأزهر وقيادة الثورة فيه . وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والاماكن العالية التى تحيط بالقاهرة

فلما أصبح الصبح ، كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة ، قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة . وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، واوقفوا على أبواب المدينة حرسا منهم يأذن لهم بالدخول ويوجههم الى أماكنهم لتعزيز الثورة . وكان من الزعماء الذين قدموا لنصرة الثورة من « قليوب » الشيخ سليمان الشواربى ، زعيم هذه الأسرة اذ ذاك . وقدم الفلاحون ايضا من الجيزة لهذا الغرض . وقدر نابليون عددهم فى تقرير له بأربعة آلاف أو خمسة ، ولكن الفرنسيين حاربوهم ، وردوهم فلم يدخلوا القاهرة وقدمت آلاف اخرى فى اليوم التالى ، من باب النصر ، فذهب الجنرال سلكوسكى لردهم . وطاردهم خارج القاهرة على طريق بلبيس . فلما عاد يدخل من باب

النصر ، تلقاه الثائرون . وفى اثناء المعركة ركبا جواده ، فهجموا عليه وقتلوه . وقتلوا من معه من الجنـــد ، ولم ينج منهم الا واحد ..

وكذلك رد الفرنسيون آلافا كثيرة كانت قادمـة من الزيتون ، والقبة ، والمرج ، والمطرية، والقطا ،وسرياقوس وقليوب . ويقول أمين باشا سامى ان ســكان القاهرة زادوا اذ ذاك الى مليون نسمة . وكانت هذه الزيادة بلا شك بسبب القادمين لمساعدة الثورة (١)

ومع حرمان الثائرين من معونة هذه الآلاف العديدة ، وضعف تسليح الثائرين فقد استطاعوا أن ينـالوا من الفرنسيين منالا شديدا . ولولا المـــدافع الثقيلة التى نصبها الفرنسيون على المرتفعات ، واطلقوا قذائفها على البيوت ، والمساجد ، والناس جميعا ، لنالوا منهم منالا أشد واعنف وأقسى

ففى مذكرات نابليون أن سبعة آلاف من الثائرين كانوا فى منطقة باب الفتوح ، يهاجمون مواقع هـــذه المدافع ، ببنادقهم ، وعصيهم ، ورماحهم . فكانت قنابلها تفتك بهم أشد الفتك ، وتقتلهم جماعات

واستطاع فريق من الثائرين أن يصل الى مقر القيادة الفرنسية ، فى الأزبكية . وتسلقوا مسجدا يشرف عليهم فسلطوا على جنودها نيرانهم وقتلوا منهم عـددا كبيرا . ولم يستطع الفرنسيون التغلب عليهم الا باقتحام المسجد، وقتل من فيه من الثائرين

واشترك كل قادر فى هذه الثورة ، حتى النســاء ،

---

(١) ص ١٢١ تقويم النيـل ، الجزء الثانى . طبع دار الكتب المصرية

وسنرى بعد قليل أن الفرنسيين أعدموا عـــددا منهن ، لاشتراكهن فيها

وكان شعلة الثورة المتأججة ، هو الازهر ، والاحيـــاء المجاورة له ، وعلم نابليون أن رجال الثورة تغلبوا على جنده فى أحياء متفرقة ، وأنهم هاجموا مقر البعثة العلمـــية فى

بيت مصطفى كاشف بالدرب الاحمر ، فأراد أن يتخذ كل مايستطيع من وسائل العنف ، والجبروت والقســـوة ، ليتغلب على الثورة

أمر بأن يضرب الازهر بقنابل المدافع ضربا شديدا • وأن يقتحمه الجند بعد ذلك تحت حماية هـــذه المدافع ، وأمر بأن يقتل كل مصرى تلقاه جنوده فى الشـــوارع المحيطة به • وأن يقتلوا جميع من يجدوه داخل الازهـــر • وأن يحرق كل بيت تلقى منه الحجارة على جنوده

وأطلقت المدافع على الازهر ، وعلى من فيه فســـقطت أول قنبلة فى داخله ، وظل اطلاقها عليه من الظهـــر الى الليل • فتسقط على المسجد ، وفى احياء الفـــورية ، والفحامين والصنادقية ، وما جاورها • وكان الجنـــــد يستولون على كل شارع أو حارة تهدمها القنابل وهـــم يتقدمون صوب الازهر

وقد وصف ريبو أثر هذه القنابل بقوله : « أوشـــك الازهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضـــه الجماهير الحاشدة فيه • وأصبح الحى المجاور للازهـــر صورة من الخراب والتدمير • فلم يكن يرى الا بيـــوت مدمرة ودور محترقة • ومات تحت الانقاض آلاف من السكان الامنين ، كان يسمع لهم أنين موجع وصـــيحات مرعبة (١)

---

(١) ص ٢٩٧ جزء « ١ » تاريخ الحركة القومية للرافعى

ويقول الجبرتى : « ... ضربوا بالمدافع والبتبات ، البيوت والحارات وتعمدوا بالخصوص الجامع الازهر . وحرروا عليه المدافع والقنبر « القنابل » .. فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام ... ! من هذه الآلام ... ! يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف ... وتتابع الرمى من القلعة والكيمان . حتى تزعزعت الاركان »

وكان من الطبيعى أن يغلب الثائرون أمام هذه القوة التى لا قبل لهم بها . ولكنهم قبل أن يغلبوا ، ويستسلموا، أدوا واجبهم كما يؤديه الابطال

ففى مساء اليوم انتهت المقاومة فى جملتها . ولكن أهل الحسينية ، والعطوف ظلوا يقاتلون وحدهم بعد ذلك ثلاث ساعات . حتى نفدت ذخيرتهم

خيل الفرنسيين داخل الازهر

وبدأ الجنود الفرنسيون يتقدمون فى حذر ، حتى دخلوا معقل الثورة ، « .. دخلوا الى الجامع الازهر ، وهم يركبون الخيول ، وبينهم المشاة كالوعول . وتفرقوا بصحنه ومقصورته . وربطوا خيولهم بقبلته . وعاثوا بالاروقة والحارات . وكسروا القناديل والسهارات . وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والاوانى والقصاع ، والودائع والمخبئات ، بالدواليب والخزانات .. ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الارض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها . وأحدثوا فيه وتغوطوا ، وبالوا وتمخطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه ، والقوا بصحنه ونواحيه . وكل من صادفوه به عروه ، ومن ثيابه أخرجوه » . بذلك وصف

الجبرتى هذه المحنـــــة التى لقيها الأزهر وأهله من الفرنسيين.

وكان ذلك فى يوم ١٣ من جمادى الاولى من ســـنة ١٢١٣ هـ - ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨ م

وبذلك انحلت الثورة وسلمت ، عاجزة . مقهورة . ولم يبق منها فى اليوم الثالث الا مناوشات قليلة ، متفـرقة ، ضعيفة . فيها من العناد أكثر مما فيها من السداد

ويقول الشيخ عبد الله الشرقاوى : « ان الفرنسيين عندما دخلوا الازهر نهبوا منه أموالا كثيرة ، وســبب وجودها فيه أن أهل البلد ظنوا أن العسكر لا يدخـــله . فحولوا فيه أمتعة بيوتهم (١) . »

اما روح الثورة وقوتها المعنوية ، وحماســـــة أهل القاهرة فيها ،على الرغم من قصورهم المادى ، وضعفهم، فقد وصفها ريبو فى هذه الكلمات ، التى يذكر فيهـــا بدء تجمعهم ، وظهور سخطهم فى اليوم الاول : « سادت الجلبة ، واختلطت الاصوات، وعلت الصيحات، فكان هذا المنظر يبعث الرهبة فى نفوس اشجع الناس (٢) »

ويصف نقولا الترك هذه الثورة بقوله : « وكان أولئك الأمم - يعنى المصريين - هايجين هيجات وحشـــية ، فتهاربت الفرنساوية ، الى بركة الازبكية » (٣) اى ان الفرنسيين كانوا يفرون أمام رجال الثورة هاربين الى مقر قيادتهم فى الازبكية

ونستطيع ان ندرك عنف هذه الثورة اذا عرفنا عـدد

(١) ص ٧٦ من كتاب « تحفـة النـاظرين » فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين

(٢) ص ٢٨٧ جزء « ١ » من تاريخ الحركة القومية

(٣) ص ٦٧ من ذكر تملك جمهور الفرنساوية

من قتل فيها من الجانبين . فقد أحصى نابليون القتلى من المصريين ، فى أيام الثورة الثلاثة ، بما يتراوح بين الفين ، وألفين وخمسمائة . وقدرهم ريبو بأربعة آلاف . وهو التقدير الأوفق . وقتل من الفرنسيين مائتان (١) ـ منهم قائدان من أعظم قواد نابليون هما ديبوى وسلكوسكى . أما أولهما فكان من أعظم قواد نابليون شجاعة ، وجسارة ، وكفاية ، منحه نابليون رتبة جنرال وهو فى الثانية والثلاثين ، تقديرا لبلائه فى حملته على مصر . وأما ثانيهما فكان بولونيا تطوع فى جيش نابليون . فاختاره ياورا له ، لنبله ، وشجاعته ، وذكائه . وكان الى ذلك عالما وعضوا بالمجمع العلمى الفرنسى . وقد حزن نابليون لقتله حزنا شديدا

كما كان من قتلى الفرنسيين عدد من الضباط ، والمهندسين ، والأطباء ، والعلماء ، والرسامين . فقد هاجم الثائرون ، فى فورة غضبهم ، مقر العلماء المرافقين للحملة فى بيت مصطفى كاشف ، بالدرب الاحمر ، وكسروا آلاتهم الهندسية ، وأجهزتهم العلمية والفلكية ، وقتلوا بعضا منهم

بقى جند نابليون داخل الأزهر يوما وليلة ، ثم ذهب اليه العلماء يرجونه أن يخرجهم فأمر بخروجهم منه ، على ان يبقى بعض منهم فى الاماكن القريبة منه

وبعد أن سلم الثائرون ، أمام القوة الساحقة ، سلط عليهم نابليون سيف القهر والغلبة والانتقام . بالقتل ، والمصادرة ، والسجن . حتى انه أصدر أمرا الى الجنرال بون ـ بعد تسليم الثائرين ، واحتلال جنوده الازهر ـ يأمره بهدم الأزهر ليلا ، لو استطاع . وأعدم لجنة

---

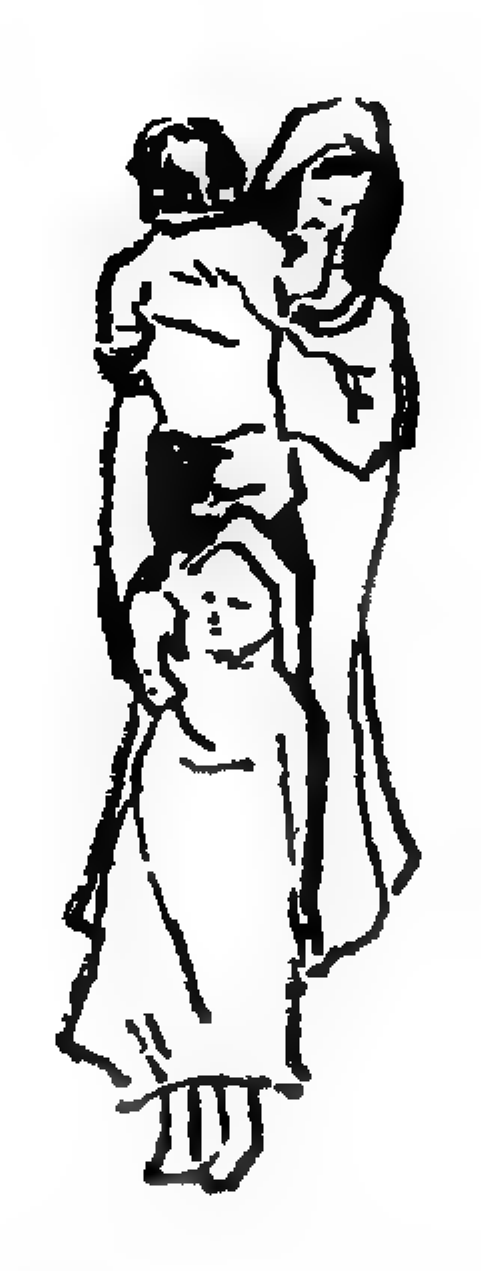
(١) قدر نقولا الترك قتلى المصريين بخمسة آلاف والفرنسيين بالفين

اشورة ، وكانت ثمانين من الزعماء والمجاهدين . كما أعدم غيرهم كثيرين . قتلوا ، ووضعت جثثهم فى زكائب، ثم ألقيت فى النيل ، ما بين بولاق ومصر القديمة . وكثير من هؤلاء أعدم بلا محاكمة . وكتب نابليون فى رسالة منه الى الجنرال رينيه ، الذى كان قائد حاميته فى الشرقية ، يقول : انه فى كل ليلة . يقطع رؤوس نحو ثلاثين من الرجال ، وكثير من زعماء الاهالى . وأن هذا سيكون درسا قاسيا لهم

وكتب الجنرال برتييه فى رسالة له الى الجنرال دوجا، قائد حامية المنصورة . انهم قد نكلوا بالثائرين ، فى مذبحة رهيبة

وذكر مسيو بورين ، سكرتير نابليون الخاص ، أنه كان يتولى مساء كل يوم كتابة الاوامر القاضية باعدام اثنى عشر سجينا من سجناء الثورة فى كل ليلة . وأن ذلك استمر ليالى عدة . وذكر أن نساء كثيرات ، نفذت فيهن احكام الاعدام . وذكر الشيخ عبد الله الشرقاوى . انهم قتلوا من العلماء نحو ثلاثة عشر عالما ، ذكر الجبرتى بعضا منهم : سجن هؤلاء العلماء فى بيت البكرى أياما . ثم عروا من ثيابهم ونقلوا الى القلعة فقتلوا والقيت جثثهم فى النيل . وكان قد تشفع فيهم العلماء والشيخ السادات ، فلم تقبل منهم شفاعة

وقد أوشك نابليون ان يأمر بقتل السادات ،لما رابه من امره بل انه قال فى مذكراته : ان الدلائل قامت عنده على أن الشيخ السادات كان زعيم الثورة ، ورئيس لجنتها . ولكنه خشى من عواقب قتله ، ومن اثر ذلك فى الناس ، لما كان للسادات من حرمة ومكانة



انتقام نابليون

ومما يدل على مبلغ القسوة التي اتخذها نابليون لعقاب أهل القاهرة على ثورتهم ، تلك الرسالة التي بعث بها الى الجنرال زيونشك ، حاكم المنوفية ، والتي يقول فيها : انه كان ـ في القاهرة ـ يقتل كل يوم ثلاثة ، ويأمر بأن يطاف برؤوسهم في الشوارع . وأن هذه هي الطريقة الوحيدة لاخضاع هؤلاء الناس . ثم يأمر نابليون قائده زيونشك ، في هذه الرسالة ، أن يتخذ مع المصريين كل وسائل البطش والقسوة . وأن يجرد سكان البلاد جميعا من سلاحهم . وتلك الرسالة التي بعث بها الى الجنرال منو ، في رشيد ، يقول فيها : انه يأمر في كل ليلة بقتل خمسة ، أو ستة ، لارهاب المصريين

أما الذين لم يقتلوا من أهل القاهرة ، حربا أو غدرا . فلم يسلموا من عنت الفرنسيين وانتقامهم أيضا . فقد ظل جند نابليون أياما طويلة يقفون لهم في شوارع المدينة ودروبها صفوفا متراصة . لتفتيش الناس واخذ ما معهم ، وربما قتلوهم . وتسلط عليهم برطلمين يبث أعوانه

وعسسه بحجة البحث عن السلاح ، ثم يفعل بهم ما يشاء حقده . فكانت ترى فى أيام كثيرة ، قوافل من المصريين تسير موثقة بالحبال الى السجن ، حيث تلقى صنوفا من العذاب ، ثم تفرض عليها المغارم الثقيلة . أو تقتل حيث لا يعلم بمصيرها أحد . ويقول الجبرتى : انه « مات فى هذين اليومين، وما بعدهما ، أمم كثيرة ،لايحصى عددها الا الله » وكذلك فعل بهم مصطفى أغا الذى اختاره نابليون محافظا للقاهرة

ولم يكن انتقام نابليون مقصورا على أهل القاهرة وحدهم . بل تجاوزهم الى أهل البلاد القريبة اليها . وخاصة تلك التى اشتركت ، أو حاولت أن تشترك ، فى معاونة الثائرين . فقد أرسل حملة الى عرب القليوبية . فحرقت خيامهم وبيوتهم . وذبحت رجالهم ذبحا . وقتلت نساءهم ، وأولادهم . ثم أمر نابليون بأن تحمل رؤوس قتلاهم الى القاهرة . فحمل منها مائتان ، وضعت فى « أكياس » ونقلت على ظهور الحمير . ثم أفرغت فى شوارع القاهرة ، امام أهلها ، نكاية بهم ؛ وتخويفا . وليروا بعيونهم انتقام نابليون فيخشعوا ، ويخضعوا ويذلوا

***

وسارت حملة أخرى الى « سرياقوس »فنهبت البلاد، وأحرقت القرى ،وفرضت على أهلها أفدح المغارم . وجاء بالشيخ سليمان الشواربى ، كبير هذه الاسرة ، وثلاثةمن رجاله ، فقتلهم . لانه وجد كتابا منه الى أهل سرياقوس، يحرضهم على الثورة .

وسارت فرقة المغاربة ، التى الفها نابليون فى القاهرة ، الى كفر عشما بالمنوفية ، فقتلوا كبيرها ، ابن شعير ، ونهبوا داره ــ وكان فيها شىء كثير ــ ثم قتلوا اولاده

واخوته . ويقول الجبرتي : « ان الفرنسيين أحضروا أخوته واولاده الى القاهرة ، فقتلوهم فيها »

ولما قتل الفرنسيون ابن شعير . طافوا برأسه في قرى المنوفية ـ وكان صاحب النفوذ الأكبر فيها ـ ليصدق الناس موته

وكذلك احرقت قرية « القطا » في امبابة ، عقابا لها

***

وقد اشترك في هذه الثورة العامة ، فهدم نابليون بيوتهم على رؤوسهم ورؤوس أطفالهم ، ونسائهم . وخاصة من كان منهم في أحياء الحسينية ، والأزهر واشترك فيها رجال الأزهر فقتل علماءه ، من غير محاكمة، والقى جثثهم في النيل . وامتهن قداسته بما رأينا من صور الامتهان ، والتحقير . واشترك فيها الخاصة ، فقتل كبارهم ، كالشواربي ، وشعير ، فقد قتلهما ومثل بهما شر تمثيل

وعاقب الخاصة ، والعلماء ، والمصريين جميعا بما فرض عليهم من ضرائب ظالمة ثقيلة . وبابطال جلسات الديوان . ولعله اراد بهذا أيضا عقاب أعضائه أنفسهم . لأنهم لم يحاولوا تهدئة الثورة ، ولم يحولوا دون وقوعها. بل كانوا يتشفعون عنده في بعض زعمائها وقادتها

***

والحق أن العلماء من أعضاء الديوان ، قصدوا الى الأزهر ، بتكليف من نابليون ، ليتحدثوا الى قيادة الثورة فيه . علهم يجدون وسيلة يحفظون بها دماء التعساء من الاطفال والنساء والعجزة ، باقامة صلح بين الثورة ونابليون . ولكن المترسين خارج الأزهر ، والمعتصمين في داخله من رجالها ، ردوا علماء الديوان

ردا قبيحا ، واعتدوا عليهم . ومنعوهم من الدخـــول عليهم فى مقر ثورتهم بالازهر

وأراد نابليون أن يأخذ الحذر والحيطة ، حتى لا تقـوم ثورة أخرى فى القاهرة . وفى الوقت نفســه ، يمعن فى الانتقام من أهلها . فهدم كثيرا من المساجد ، منهـــا مسجد أولاد عنان ، والكزرونى ، فى الروضة ، ومســجد فى قنطرة الدكة ، وآخر فى امبابة ، واتخذ من مســجد الظاهر قلعة وجعل مئذنته مرصدا . وأقام فى داخـله عدة مساكن لجنده ، وحظائر لخيلهم . ووضـــع على أسواره المدافع

وأحاط القاهرة كلها بالحصون ، والقلاع ، والمعاقل ، فهدم فى سبيل ذلك كثيرا جدا من البيوت والقصـــور ، أو خربها ، وقطع آلافا من الاشجار ، وامر سكان المناطق القريبة من مقر قيادته فى الأزبكية ، أن يتركوا مســاكنهم ليسكن فيها جنده ، ورجاله ، وانصاره

***

وقد بلغ عدد القلاع والحصون ، التى أقامها نابليون ، حول القاهرة ، وفى ضواحيها ليسيطر عليها ، وليحـول دونها ودون ثورة أخرى ، أو يهدمها بالقنابل اذا ثارت ، تسع عشرة قلعة ..

ولكن ذلك كله لم يجد شيئا ، فقد ثارت القاهرة بعـد ذلك ثورتها الكبرى ، كما نرى بعد



الثورة فى الوجه البحرى

لم تكن القاهرة وحدها هى الغاضبة من عدوان نابليون على أرض مصر ، ولا الثائرة وحدها فى وجه جيوشه . بل شاركتها فى الغضب والثورة بلاد الريف كلها ، فى الوجهين البحرى والقبلى على السواء . ونكاد نجد — ونحن نسجل صفحات هذه المقاومة الباسلة — أن كل مدينة ، وكل قرية فى هذا الريف كله ، كان لها نصيب فى شرف هذه الثورة وهذا الغضب

فعندما خرجت جنود نابليون لتعقب جيش ابراهيم بك ، وهو فى طريقه الى « بلبيس » خرج عليهم الناس من قرية « أبى زعبل » بالبنادق والعصى . حتى ردوهم الى الخانكة . ثم قام أهل الخانكة أيضا فصاروا يقتلون كل من يلقونه من الفرنسيين . ودمروا الافران التى بناها «ميو» ، مدير اللوازم لجيش نابليون ، وكان قد بناها لتموين الجيش الزاحف لمطاردة ابراهيم . ودام القتال بين المجاهدين من اهل هاتين القريتين من صباح يوم ٥ اغسطس ١٧٩٨ الى مسائه ، حتى كادت الدائرة

تدور على الفرنسيين ، فانسحبوا من الخانكة . ووثب المجاهدون على الحامية التى بقيت فيها فجردوا أفرادها من السلاح ، وقتلوهم . وارتد من بقى من الجنـد وقد استولى عليهم الفزع ، الى المطـرية ، والمرج ، عائدين الى القاهرة . ولكن الفرنسيين عادوا بعد ذلك بجيش كبير ، وتغلبوا على المجاهدين ونهبوا قرية أبى زعبل ، وحرقوها، ثم ساروا الى بلبيس

فى الشرقية

وبعـد هزيمة ابراهيم بك ، فى بلبيس ، وفراره الى الشام . بدأت مقاومة أهل مديرية الشرقية فى الظهور والشدة . فأخذوا يرفعون السلاح فى وجه الفرنسيين، ويمتنعون أن يبيعوهم الخيول ، والاطعمـة ، وحيوانات الذبح . ويغيرون على مواصلاتهم مع قيادتهم فى القاهرة، فيقطعوها . ويهاجمون مخافرهم فى الليل والنهار . وقتلوا ترجمان الجنرال رينيه الخاص،على مقربة من معسكرهم فى بلبيس ..

وحارب أهل قرية « بيشة قايد » فرقة فرنسـية ، أرادت أن تغتصب منها خيلا

وقد تطورت مقاومة المجاهدين بعد ذلك ، الى هجوم على معسكر الفرنسـيين الرئيسى ، فى بلبيس ، وتكرر هذا الهجوم اكثر من مرة . واشترك فى بعض الهجمات ١٢٠٠ من المشاة ، و ٢٥٠ من الفرسان . واسـتطاع الجنرال رينيه ، بمن معه من الجند ومن جاء لنجـدته من مدد أن يصد هذه الهجمات ، ولكن العرب من قبائل « بلى » أعادوا الهجوم عليه بخمسـمائة فارس ، وألف وخمسمائة رجل . وكانت مدافـع الفرنسيين ذات أثر

حاسم فى هذه المواقع . ومع ذلك فقد كانت الحرب سجالا بينهم وبين المصريين من الفلاحين والعرب . واستنجد رينيه مرة أخرى ، بنابليون . فأرسل اليه مددا . وأمره بالقسوة فى عقاب الثائرين والمحرضين . ولكنه وجد أن الشدة غير مجدية . فمال الى المسايرة والملاينة ، ومع ذلك لم يفلح

ومن الذين برزوا فى المقاومة ، من أهل بلبيس ، عبد الرحمن أباظة . وقد أخذه نابليون ، كما أخذ كثيرين غيره رهائن ، حتى تسكن الفتنة ، وتنتهى المقاومة . ثم جاء به وبهم الى القاهرة موثقين بالحبال . ومعهم نساؤهم واولادهم ، ذكورا واناثا ، وسار بهم الفرنسيون فى شوارعها يزفونهم بالطبول

وفى بلدة بردين ، فى الشرقية ، تجمع الناس من أهلها أمام بلدتهم ، فلما شاهد القائد الفرنسى كثرتهم ، وسلاحهم ، لم يشأ أن يبادر بحربهم . فدعا عمدتها أن يقدم اليه ليطلب منه صرفهم ، فلم يحضر . وحارب أهل بردين وما حولها من البلاد القوة الفرنسية فهزموها وقتلوا من جنودها خمسة ، وجرحوا غيرهم . وفر من بقى من القوة . فلما بلغ خبر هذه الهزيمة الجنرال دوجا فى القاهرة ، أرسل الى بردين قوة كبيرة ، ومدافع . فحاربها الفلاحون حتى غلبتهم . ثم دخل الفرنسيون البلدة فحرقوها . ومات من أهلها من الحرب أو الحريق ثلاثمائة شهيد ، ثم سارت القوة بعد ذلك الى « الزنكلون » لعقاب أهلها على اشتراكهم فى المقاومة ، فوجدت أهلها قد رحلوا عنها

ومن البلاد التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الشرقية « العصلوجى » و « الغار » و « كفور نجم »

وقد وقعت أمام هذه البلدة معركة شديدة ، على بحر مويس ، قتل فيها من المصريين مائة وثلاثون

كانت امارة الحج فى ذلك الوقت ، من اكبر وظائف الدولة . فلما عاد أمير الحج فى تلك السنة ، صالح بك ، أبى أن يدخل القاهرة وفيها نابليون . ولحق بابراهيم بك فى بلبيس . فاختار نابليون بدلا منه الامير مصطفى بك . وأمره بأن يسير خلفه حين خرج لغزو سوريا . وأخرج معه القاضى التركى ، أدهم أفندى ، وبعض العلماء . ولكن الأمير ترك نابليون يسير الى الصالحية . وعرج هو ، ومعه القاضى ، والشيخ سليمان الفيومى ، الى « كفور نجم » حيث التقت به جموع كثيرة . وصار يدعو الناس للحرب والثورة . ثم سار الأمير ومعه الجموع الكثيرة من أهل هذه البلاد ، حتى نزل مديرية الدقهلية واستقر فى « ميت غمر » ليقطع مواصلات نابليون فى نهر النيل . وأمام هذه المدينة ، مرت عدة سفن فرنسية تحمل المؤن ، والدقيق الى جيش نابليون الذى كان يحارب فى سوريا اذ ذاك فأغارت عليها هذه الجموع ، واستولت على ما فيها . وقتلت من فيها من الجنود . ثم مرت بعد ذلك سفينة حربية فهاجمها المصريون بقيادة مصطفى بك ، واستولوا عليها . وغنموا أربعة مدافع كانت تحملها . وقتلوا جنودها وبحارتها

وقد استشاط الفرنسيون غضبا لهذه الاعتداءات التى أوقفت سير سفنهم فى النيل . فسلطوا على « ميت غمر » قوة كبيرة احرقتها ، حتى لم يبق فيها حجر على حجر . ثم اقاموا الحصون فيها ، وفى المنصورة ، ومنوف ، لحماية الملاحة فى النيل من هجمات المجاهدين

أما الأمير مصطفى بك ، فقد صادر الفرنسيون

ممتلكاته فى القاهرة ، وقبضوا على نائبه الذى كان ناظرا على الكسوة . وفر هو الى دمياط ، ثم الى الشام. وأراد ان يترضى الفرنسيين بعد فشله ، وأن يجدد صلاته بهم ، فأبوا ، ويقول نقولا الترك : « أن مصطفى بك ذهب ليخدم أحمد باشا الجزار فى عكا ، فاتهمه بالجاسوسية ، وقتله »

وقد أسرع الفلاحون والعرب وأعيان البلاد الى معونة هذه الثورة التى دعا اليها مصطفى بك ، وكان من أكبر أنصاره فيها كبير من أعيان هذه البلاد اسمه الجبالى ، وبادر الفلاحون بدفع ما فرض من الضرائب ، وكانوا لا يدفعونها للفرنسيين ولو اكرهوهم على دفعها

فى الدقهلية ودمياط والسويس

وقد كانت مديرية الدقهلية ومدينة المنصورة خاصة ، من البلاد التى ابدت اعنف المقاومة للفرنسيين

وقد شهد ريبو اكرم شهادة لأهل مديرية الدقهلية . حيث قال : انها كانت مسرحا للاضطرابات . وانها هى والبلاد الواقعة على بحيرة المنزلة ، والجزر التى فيها ، يسكنها قوم أشداء ، ذوو نخوة ، لهم جلد وصبر . وهم اغنياء بما ينالون من الصيد فى البحيرة

ولم يستطع الفرنسيون اخماد الثورات المتأججة فى بلاد هذه المنطقة ، الا باتخاذ أشد وسائل التنكيل والقسوة التى اغضبت نابليون نفسه ، وخشى منها على مكانته وسمعته

فعندما تكررت حوادث الاعتداء على السفن الفرنسية فى النيل ، وقتل الجنود والبحارة ، قصد الجنرال فيال حاكم دمياط ، على راس حملة تأديبية ، فحرق البلاد

الواقعة فى طريقه ، وهى الضـــهرية ، وكفر المياسرة ، والزرقاء ، وميت الخولى ، وقد أباحها لجنوده نهبـــا وحرقا ، لأن أهلها كانوا أكثر اعتـــداء من غيرهم على السفن . وقد وجد فيها ثلاثة مدافع . ثم حـــرق ونهب قرى الاحمدية ، وشرمساح ، وكفر الزعاترة . ثم عاد بحملته الى دمياط بعد ارتكاب كل هذه الفظـــائع مع أهل القرى المجاورة . وقد أرسل له نابليون يلومه على ما فعل بقرية ميت الخولى ، ويبدى له اســـتياءه من ذلك

معركة المنصورة

واتفق اهل مدينة المنصورة وما جاورها من البـــلاد والقرى ، على ان يفتكوا بالحامية الفرنســـية فيهـــا . وتواصوا سرا على الاجتماع فى يوم الخميس الذى يقـــام فيه « السوق » الأسبوعى للمدينة ، وفى اليوم الموعود امتلأت المنصورة بالقادمين الى الســـوق وبالثائرين . وقصدوا الى مقر الحـــامية فأحاطوا به ، ثم دكوه دكا ، وأحرقوه . وكان ذلك مفاجأة للفرنســـيين ، فأسرعوا يقصدون النيل ليهربوا بحرا ، ولكن الثـــائرين كانوا فى انتظارهم ، فقتلوهم جميعا . واستطاع فريق آخـــر من الجند الفرنسى ، أن يصل الى النيل ، ولكن اصحاب السفن الصغيرة من « المراكبية » أبوا أن يحمـــلوهم ، فلحق بهم الثائرون وقتلوهم . وقدر عدد القتـــلى من رجال هذه الحامية بمائة وعشرين ، وقدره بعض المصادر بمائة وستين « أورثهم أهل المنصورة موارث العـــدم » على حد تعبير نقولا الترك . وكان عقاب أهل المنصورة على ذلك ، أن أمر نابليون بقتل عشرة من أعيانها . ولكن الجنرال دوجا ، الذى اختير للانتقام منها ، وجـــد زعماء

الثورة قد غادروا المدينة . ورأى الا يقتل غير مذنب محقق ذنبه . فأعدم اثنين من أهل المدينة ، وأمر رجاله فطافوا برأسيهما فى شوارعها . ثم أمر جنوده بتعقب زعيمين كان لهما أثر بارز فى هذه الثورة . هما على العديسي ، من منية محلة دمنة ، وآخر اسمه مصطفى ، من بلدة القباب الكبرى . ولكنه لم يظفر بهما . ويقول نقولا : أن الحملة التى قام بها دوجا للانتقام من أهل المنصورة ، كانت ثلاثة آلاف جندى ، كما أمر نابليون بفرض ثلاثة آلاف ريال على أعيان المنصورة ، وألفى ريال على السيد على الشناوى خاصة — وكان أكبر أعيانها — وألفى ريال أخرى على أسوأ القرى سلوكا مع الفرنسيين فى هذه المنطقة . وأمر بأخذ رهائن من أهل هذه القرى ، حتى يسلم أهلها المعتدين والمحرضين. وأن تحرق القرى التى كان أهلها أكثر عدوانا على الفرنسيين ..

وفرض على أهل المحلة الكبرى أربعة آلاف ريال . وأمر بأن ترفع الراية الفرنسية على مآذن المساجد فى قرى الدقهلية وبلادها كلها ، وأن تحرق البلاد التى يأبى أهلها ذلك

وقد كتب الجنرال لوجييه فى مذكراته وصفا لما سلبه الفرنسيون من أهل هذه البلاد ، نستطيع أن ندرك منه مدى ما حل بهم ، قال : « فى اليوم الذى عاد فيه الجنود الى دمياط ، بعد هذا النهب ، كانت المدينة أشبه بسوق أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون الى الأروام ، ما نالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى ، والطيور ، والثيران والبقر ، والخيول والحمير ، والغنم ، والدجاج ، والأوز . وكثيرا من قطع

الذهب والفضة التى كانت حليا للنساء (١) »

ومع كل هذه القسوة الباغية ، لم يستطع الفرنسيون أن يحكموا هذه البلاد ، ولا أن يسيطروا عليها بأقل سلطان ، وفى ذلك يقول لوجيه : « ان السلطة الفرنسية ما زالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية . وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى ، ولا يأمن الجندى الفرنسي على حياته اذا هو ذهب الى حي الوطنيين . والحامية الفرنسية متصلة فى حى الاروام (٢) »

ويبدو أن مقاومة أهل دمياط لم تفتر طوال مدة الحملة الفرنسية كلها . فقد أصدر الجنرال بليار ، الذى كان حاكما عليها فى أواخر أيام الحملة ، فى قيادة الجنرال كليبر ، أصدر بليار أمرا بفرض مائتى الف فرنك على أهل دمياط

ومن البلاد التى اشتركت فى شرف المقاومة للفرنسيين وتعرضت لعقوباتهم الصارمة من هذا الاقليم ، « دنديط » و « ميت الفرماوى » و « الهوابر » . وقرى « محلة دمنة » و « القباب الكبرى » و « دموه السباخ » . على البحر الصغير ، بين المنصورة وبحيرة المنزلة . و « ميت سلسيل » وقد أحرقت بعد أن هجرها أهلها

وقد حاربت قرية الجمالية ، دقهلية ، الفرنسيين فى معركة كبيرة . أشار اليها نابليون فى رسائله الى حكومته

كانت سفن الجنرال داماس تسير على الشاطىء الغربى من بحر اشمون . وعندما واجهت هذه القرية ، الجمالية

(١) ص ٣٥٢ ج ١ من تاريخ الحركة القومية

تلقاها أهلها بعاصفة من النار ، والحجارة . تنهال على السفن من فوق أسوار القرية ، ومن أعلى بيوتها . وفى نفس الوقت كانت جموع من الفلاحين والعرب تحمل البنادق ، والسيوف ، و « الشماريخ » تسرع لمهاجمة السفن ، وبعضهم يركب الخيل . فنزل جنود الجنرال داماس لمحاربة أهل هذه القرية والمهاجمين . حتى تغلبوا عليهم . ولكن المجاهدين استطاعوا أن يتجمعوا مرة أخرى داخل القرية . فعبر الفرنسيون النيل اليها ، واقتحموها بعد مقاومة باسلة من أهلها . وكان الفلاحون يتترسون فى كل بيت ، ويحاربون القوة الفرنسية فى كل شبر من أرضها ، ويدافعون عن كل جدار وحائط . حتى تلاشت قواهم . وألقى من نجا منهم بنفسه فى الماء ، وهو يحمل سلاحه . ليحارب فى مكان آخر . وقدر الفرنسيون من استشهد فى موقعة الجمالية هذه من المصريين بخمسمائة . وقتل من الفرنسيين خمسة ، وجرح خمسة عشر . ودامت المعركة فى عنفها أربع ساعات . وقد وصف الضابط جازلاس ، أحد ضباط الجنرال داماس شجاعة أهل هذه القرية وصفا مشرفا ، فقال فى تقريره عنها . « رأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم ويهجمون ، حتى يصيروا فى وسط جنودنا . وقد رأيت بنفسى جماعة من الفلاحين ليس بيدهم سلاح سوى العصى ، يهاجموننا بحماسة ، فيستشهدون . وقد تركنا الميدان مغطى بجثث القتلى »

وقد أحرق الفرنسيون هذه القرية الباسلة بعد هزيمتها

وكان الفلاحون ، من أهل الدقهلية ، يرفضون رفضا باتا ، أن يدفعوا للفرنسيين ما عليهم من الضرائب . أو يدلوهم على بيوت المماليك وثرواتهم . أو أماكن المحرضين ،

والهاربين من المجاهدين . وكانوا يلاقون رسل الفرنسيين اذا قدموا لاحد هذه الاغراض ، بالرصاص

وفى دمياط ، وبحيرة المنزلة ، جرت كذلك حروب ومواقع عنيفة بين المجاهدين والفرنسيين . كان بطلها رجلا من أبرز عناصر المقاومة للفرنسيين ، وهو الشيخ حسن طوبار . وسنفرد لسيرته فصلا مستقلا فى تراجم زعماء المقاومة

ففى دمياط ، اتفق الشيخ حسن طوبار مع أهلها على أن يعد أسطولا من السفن لمهاجمة الحامية الفرنسية فيها . على أن يقوم أهلها فى الوقت نفسه بالهجوم عليها . والتقى هؤلاء وهؤلاء فى قرية « غيط النصارى » ثم ساروا الى دمياط فقتلوا الحرس الفرنسى فى مداخلها . وقامت معركة بين الفريقين دامت ليلة كاملة . تغلب بعدها الفرنسيون ، بعد أن حاربهم الثائرون حربا قاسية . ثم تجمع بعضهم مرة أخرى فى قرية « الشعرا » فسلط عليهم الفرنسيون المدافع . ثم كروا على القرية فنهبوها واحرقوها . وقتل فى هذه المعركة من الفرنسيين اثنا عشر ، وجرح ثلاثون

وعندما كانت الثورة قائمة فى دمياط ، قام أهل «عزبة البرج » القريبة منها ، على الحامية الفرنسية فيها ، فقتلوا من أدركوه من رجالها

وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن عدد الثائرين فى هذه المنطقة كان عشرة آلاف ، وان قرية « الشعرا » كانت مجتمعهم ، ومقر قيادتهم . كما ذكرت أن من قتل فى هذه القرية ، بالحرب أو الحريق ، أو الغرق فى النيل أو فى بحيرة المنزلة ، كان ألفا وخمسمائة . وجرت معركة أخرى بزعامة الشيخ حسن طوبار أيضا ، فى بلدة « المنية » غربى

دمياط . قاتل فيها المجاهدون قتالا شديدا ، حتى أرسل الجنرال دوجا يدعو زعيمها الى الصلح . ولكنه أبى

ولما تغلب الفرنسيون على مقاومة أهل دمياط ، وبحيرة المنزلة سارت فرقة من جنودهم قاصدة السويس . فترصد لها المجاهدون فى الطريق وأبادوها

وقام أهل السويس ، ومعهم حاكمها الوطنى ، فحاربوا الحامية الفرنسية فيها . ولكنها تغلبت عليهم . ولم يستسلم المجاهدون ، بل حاربوا حتى قتلوا جميعا . ثم نهب الفرنسيون المدينة . وغصبوا ما فيها من البن والبهار الذى كان فى مخازن التجار . وكذلك أحرق أهل العريش القلعة على من فيها من الفرنسيين ، فقتل منهم عدد كبير

فى المنوفية والغربية

وكانت مقاومة أهل مديريتى المنوفية والغربية ، باسلة مشرفة أيضا . فقد سافر الجنرال فوجير ، الذى عين حاكما على الغربية فى اغسطس سنة ١٧٩٨ وكان نابليون قد أمره بأن يأخذ أهلها بغاية القسوة والشدة . فلما كان سائرا اليها ، خرج عليه أهل قريتين من قرى منوف ، هما « غمرين » و « تتا » يحملون سلاحهم . ولم يمكنوا القائد الفاتح من دخولهما . فاستعان بزميله الجنرال زايونشك ، حاكم المنوفية ، فامده بقوة كبيرة . ومع ذلك لم تستطع القوتان دخول قرية غمرين الا بعد أن رويت ارضها بالدماء الغزيرة ، وبعد ان قتل الفرنسيون من أهل هذه القرية الصغيرة ، خمسمائة رجل وامراة

وشهد الكابتن فيروس ـ وقد اشترك فى هذه الموقعة ـ بأن نساء القرية كن يهاجمن الفرنسيين بكل بسالة وشجاعة كما أشار نابليون ، فى تقريره الى حكومة الجمهورية ،

الى موقعة غمرين هذه ، وما لقيه جنوده من مقاومة أهلها ، وقد أحرق الفرنسيون القريتين ، بعد اقتحامهما

وفى ختام أيام الحملة قبل رحيل الفرنسيين ، قصد جنودهم الى الريف ليأخذوا من أهله نفقات رحيلهم • فلما وصلوا المحلة الكبرى خرج أهلها عليهم ، ومعهم القاضي، وحاربوهم . ويقول الجبرتى : انه قتل من أهل المحلة فى هذه المعركة ، أكثر من ستمائة منهم القاضى

وفرض الفرنسيون على أهلها أربعة آلاف ريال

وفى طنطا قامت ثورة عاتية، عند طلب القائد الفرنسى، لوفيفر ، أربعة من أهلها رهائن . فأرسل اليه حاكمها ، سليم جوربجى ، أربعة من شيوخ مسجد السيد البدوى . وقد أوشك الثائرون أن يفتكوا بجند الفرنسيين وأن يمنعوا سفنهم التى تسير بهؤلاء الرهائن فى النيل الى القاهرة • ولكن القائد تغلب عليهم بعد ان قتل منهم ، وجرح ثلثمائة

وطلب هذا القائد الى نابليون أن ينتقم له من أهل طنطا . ولكنه رأى من الحكمة الا يفعل ذلك ، لحرمة السيد البدوى فى نفوس الناس ••

وعندما قامت القاهرة ، فى ثورتها الثانية على الفرنسيين فى اغسطس سنة ١٨٠٠ ، ثار أهل طنطا مرة أخرى ، فقاتلهم الفرنسيون . ثم فرضوا خمسين الف ريال غرامة على علمائها خاصة ، وخمسين ألفا أخرى على أهلها عامة . وأخذ الجنرال كليبر اثنين من علمائها الى القاهرة فسجنهم فى القلعة

وقد أصاب آل الخادم ، وهم اكبر الاسر فى طنطا فى ذلك الوقت ، شر كبير من الفرنسيين . فقد اقتحموا بيوتهم ، وأخذوهم منها وقيدوا أرجلهم وابقوهم فى معسكرهم

أياما ، وكانوا يأخـــذون منهم فى كـل يوم من هذه الأيام ستمائة ريال، غير ما استولوا عليه من أغنامهم ومحاصيلهم. وفرضوا عليهم فوق ذلك خمســـة عشر ألف ريال . وأخذوهم الى الجيزة ســجناء ، ثم أطلقوا سراحهـم • واحتجزوا كبيرهم مصطفى الخادم لأنه كان أكثرهم مالا ، وأكبرهم مكانة . وطالبوه بمال جسيم . وتفننوا فى أنواع العقاب ، وألوان التعذيب يوقعونها به . فتـارة يضربونه على كفوف يديه ورجليه ، وتارة يلقونه فى الشمس موثق الجسد ، والحر شديد ، حتى يتورم جسده ، وكان رجلا جسيما ضخما • ويقول الجبرتى : « انهم أخذوا « عساكر المقام » التى كانت منصوبة فوق ضريح السيد البدوى . ثم يقول انها كانت من الذهب الخالص . وزنها خمســة آلاف مثقال ..

وكان كبير أسرة شعير ، فى كفر عشـــما ، ممن حاربوا الفرنسيين ، والحقوا بهم شرا كثيرا . وارادوا أن يتخلصوا منه بالغدر ، فهاجموه ليلا فى قصره الحصين ، وتغلبـــوا بالمفاجأة على رجاله ، وألقى هو بنفســـه فى النيل ، وظل يسبح وهم يطلقون عليه النار ، حتى أصابته رصـــاصة قتلته • ووجد الفرنسيون فى قصره العظيم ثلاثة مدافع ، وعددا كبيرا من البنادق ، وشارات وملابس لضـــباط فرنسيين قتلهم رجاله ، وكميات وافرة من الذخـــائر ، وثلاثين فرسا أصيلة ..

وبعد موت ابن شعير ، نهب الفرنسيون بيوته ومزارعه الواســـعة ، واسروا اخوته وأولاده ، ثم قتلوهم ، ولم يتركوا منهم سوى طفل صغير ، جعلوه شيخا على اسرتهم

وقد ذكر الجنرال لانوس ، الذى هاجم ابن شعير ، فى كتابه الى نابليون ، أنه لولا مفاجأته له لما تغلب عليه . فقد

كان مشهوراً بالبطش والشدة . وكان يسير فى حراسة ألف ومائتى رجل مسلح ، وأرسل له نابليون تهانيه الحارة على ظفره به

وعند قريتى « طنوب » و « الزعيرة » من قرى المنوفية، شاهد الفلاحون سفينة حربية فرنسية فهاجموها ، وحاربوا من فيها من الجند حربا عنيفة • فقتلوا منهم عشرة وجرح أربعون ، منهم الجنرال دومارتان ، قائد مدفعية نابليون ، ومات بعد أسابيع •وأرغم نابليون بسبب الاعتداء على السفن ، على أن ينشيء ثلاثة أساطيل مسلحة لحراستها . وكان أولها يحرس السفن التى تسير على فرع رشيد • وثانيها يحرس السفن التى تسير على فرع دمياط والثالث لحراسة السفن التى تهبط الى الوجه القبلى أو تجيء منه الى القاهرة

ومن الذين قتلهم رجال المقاومة ، من رجال هذه السفن، الكابتن جوليان ، ياور نابليون ، فقد جنحت سفينته بقرب رشيد . وكان مسافرا بها يحمل رسالة من نابليون الى كليبر وبرويس ، فهاجمها أهل قرية « علقام » فى كوم حماده وقتلوا جميع من فيها . وكان جزاء هذه القرية الباسلة أن حرقت جميعها

وكذلك جرح من رجال نابليون أيضا ، مسيوسوس ، مدير مهمات الجيش ، ثم مات من جرحه

وكان للعربان من قبائل اولاد على والهنادى جهاد مذكور فى المقاومة • وقاومت بلدة شباس عمير الفرنسيين الذين أرادوا دخولها فلما فشلوا فى دخولها أحرقوها

فى البحيرة

وفى مديرية البحيرة كانت أيضا مقاومة منظمة اقرب

ما تكون الى المواقع الحربية الكبيرة . وكان يقود هـــذه الحركة رجل مغربى تسمى باسم محمد المهدى : أو الامير محمد . قاد فى أول أمره قافلة من الحجاج المغاربة ، كان عددها أربعمائة . ثم نزل بهـا الى دمنهور فدهم الحامية الفرنسية فيها وهزمها ، وقتل جميع من كان فيها ، ولم يبق منهم أحدا • واستولى على سلاحهم ومدافعهم

وارتفع ذكره بعد هذا النصر ، حتى تطوع للحرب معه عدد عظيم من الناس مصريين وغير مصريين . وبلغ جيشه أربعة آلاف مقاتل . وسبعة آلاف فى رواية نقولا الترك . ولما هزمت الحامية الفرنسية في دمنهور وأبيدت ، قـدم قائد الفرقة الفرنسية فى الرحمانية ، ومعه عدد كبير من الجنـد لحرب محمد المهدى ، فهزموا أمامه ، كما هزمت الفرقة الفرنسية فى دمنهور . ولكن النصر فى هذه المعركة كان غالى الثمن . حيث قتل كثير من المجاهدين المصريين. وكان أكثرهم من الفلاحين الذين تطوعوا للجهاد ، ودخلوا المعركة من غير سلاح

ولما بلغ أمر المهدى هذا المبلغ من الخطر ، تحرك لحربه حاكما الغربية والمنوفية ، وكلاهما يقود جيشـا كبيرا . وسار الجيشان الى حيث التقيا مع المهدى فى « سنهور البحيرة » وكان جيش المهدى ، كما قدره ريبو ، خمسة عشر ألفا من المشاة ، وأربعة آلاف فارس ، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، دامت سبع ساعات ، يوم ٩ مارس سـنة ١٧٩٩ وقد أبلى فيهـا المجاهدون أعظم البلاء ، وأبدوا ضروبا عظيمة من البسـالة . فقتلوا من الفرنسيين ستين قتيلا • وقتل منهم ألفان ••

ولم يتغلب الفرنسيون أول الامر على رجال الثورة . بل ارتدوا الى الرحمانية • ثم عادوا بمدد جـديد من السلاح والجند ، فتغلبـوا على جيش المهدى ، ودخلوا

وكان انتقام الفرنسيين من أهل دمنهور شديداً بالغ الشدة • حيث قتلوا ألفا وخمسمائة من الرجال ، والنساء ، والاطفال ، والعجزة ، وأحرقوا المدينة كلها ، وتركوها أطلالا ، وحجارة سوداء . وأباحوها لجنودهم فنهبوها . ولم يستطع الفرنسيون اللحاق بالمهدى ، ففر الى الصحراء ، وبقى رجال الثورة يواصلون كفاحهم

وتقول مصادر فرنسية مشكوك فى صدق روايتها : ان الجنرال لانوس ، الذى حارب المهدى ،ظل يطارده ، ويترصده على حدود الصحراء حتى قتله . ويذكر الجبرتى فى حديثه عن ثورة القاهرة الثانية بعد ذلك ، أنه كان من زعمائها رجل مغربى ، يقال انه المهدى هذا ..

وقد استطاع الثائرون ، قبل هزيمتهم ، أن يطهروا المنطقة الممتدة من الرحمانية الى رشيد ، من الفرنسيين••

وقد جاوز الفرنسيون ، فى انتقامهم من أهل مدينة دمنهور ــ بسبب ثورتهم ــ كل منطق ، وحكمة ، وقانون، يصف أحد رجالهم ــ لاكروا ــ ذلك بقوله :

« ولما كان أهل دمنهور قد اشتركوا فى الثورة ، وضربوا مثلا سيئا لاهالى البحيرة . لذلك قضى عليهم ، رجالا ونساء وأطفالا ، بالفناء قتلا بحد السيف . وأشعلت النار فى دمنهور ، حتى احترقت عن آخرها . ولم يبق من دورها ومساكنهاغير أطلال قائمة ، وأحجار قاتمة ، وجثث هامدة (١) » ••

وقبل أن ننتهى من تفصيل المقاومة فى الوجه البحرى ، نذكر أن معركة أبى قير البحرية التى حطم فيها نلسون

(١) ص ٣٥٥ من كتاب فتح مصر الحديث للمرحوم أحمد حافظ عوض

اسطول نابيون ، والتى تعتبر من المعارك التاريخيــة ، ذات الاثر البعيد ، ليس فى نتائج حملة نابليون على مصر وحدها ، بل فى تاريخ العالم كله . هذه المعركة ذاتالاثر البعيد ، لم تخل من يد مصرية ، ليست ضعيفة الاثر ..

فقد شهد الفرنسيون أن سفينة مصرية كانت تتقدم أسطول الاميرال نلسون عند دخوله خليج أبى قير لخوض المعركة . وأن هذه السفينة كانت تحمل بحارة مصريين تقدموا لارشاد الاسطول الانجليزى فى مسالك الخليج

وجاء فى تقرير الضابط شاربيه ، الذى كان على ظهر بارجة فرنسية : أنهم فى مساء اليوم الذى ظهرت فيه بوارج نلسون فى أبى قير ، شـــاهدوا « فى عرض البحر سفينة مصرية قادمة من الاسكندرية تتصل باحـــدى السـفن الانجـليزية ، ولم تنفصــل عنهــا بالرغم من أن سفينة الرت « Alerte » أطلقت عليها عدة قنابل (١)»

وقد أقام نابليون ، بسبب المقاومة العنيفة التى لقيها ، قلاعا منيعة فى الاسكندرية ، ورشـــيد ، ودمياط ، والرحمانية ، وبلبيس ، والصالحية . لكسر شوكـــة المجاهدين المصريين فى الوجه البحرى ، وقمع كل ثــورة يقومون بها ضده

كما صادر نابليون وخلفــاؤه محاصيل الفلاحين ، من الغلال ، والشعير ، والتبن ، والفول . وفرضوا على كل اقليم أكثر من الف فرس ، وألف جمل فوق ما فرضـوه من الاموال الباهظة على اهلها . وكانوا يضربون الفلاحين، واعيان البلاد بالمقارع على مغاصلهم ، وركبهم ، ويربطونهم بالحبال ثم يجرونهم بها

ولكن ذلك كله ، لم يجده ، ولم يجدهم نفعا ..

---

(١) ص ٢٣٠ من كتاب تاريخ الحركة القومية ، الجزء الاول



الثورة فى الوجه القبلى

كانت المقاومة فى الوجه القبلى ، تمتاز بميزة التنظيم ، وكثرة التجمعات ، بل الجيوش التى تشترك فيها . وقد وصفها الفرنسيون بأنها كانت مواقع حربية كاملةحقيقية

ومن الاسباب التى جعلت مقاومة الصعيد تمتاز بهذه الميزات ، أن مراد بك ، بعـــد فراره وهزيمته فى موقعة امبابة ، التجأ الى الصعيد ، واتخذ من بلاده ، ومن رجاله سبيلا للانقضاض على الفرنسيين . وكان فىبعض الاحيان يشترك مع المجاهدين من المصريين فى المقاومة ، أو يأمر جنوده بذلك . فكان وجود مراد وجنده ، أو من بقى معه منهم ، ومن كان يجمعهم ، كان وجوده مشتركا أو مشجعا، من الاسباب التى جعلت المقاومة فى الوجه القبلى كمـــا وصفنا

ولكن خصائص أهل الصعيد من الشجاعة والصبر ، مما شهد به الفرنسيون أنفسهم ، كانت من أهم العوامل ايضا فى هذه المقاومة . ولعل أكبر دليل على ذلك ، أن مراد بك نفسه صالح الفرنسيين ، وتولى حكم الصعيد تحت راية الجمهورية الفرنسية . وكان فى حكمه ذاك مثلا

للخادم المطيع الامين . ومع ذلك بقيت مقاومة اهل الصعيد للفرنسيين قوية لم تضعف

كان أول اشتباك بين المصريين والفرنسيين ، فى الصعيد عند بلدة « القنايات » ثم تبعته موقعة كبيرة فى « سدمنت الجبل » من مديرية الفيوم ، كادت قوات الفرنسيين أن تهزم فيها ، لولا مدفعيتهم التى لم يكن لدى المصريين شىء منها ..

ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين ، فقد قتل منهم فى هذه الموقعة ــ بتقدير المصادر الفرنسية نفسها ــ ثلاثمائة وأربعون ، وجرح مائة وخمسون . وقتل أربعمائة من المصريين . وكان عدد الفرسان من المصريين ، بما فيهم جنود مراد بك ، يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ..

وكانت هذه المعركة من أهم المعارك التى خاضتها الجيوش الفرنسية فى مصر ، حتى ذكرت بعض مصادرهم: أنها تلى فى الاهمية موقعتى امبابة ، وشبراخيت . وقد جرت هذه الموقعة يوم ٧ اكتوبر سنة ١٧٩٨

وبعد أن احتل الفرنسيون مدينة الفيوم ، هاجمهم فيها ثلاثة آلاف من المجاهدين ، منهم الفان من الفلاحين ، والف من العربان والمماليك . واقتحم الثائرون أسوار المدينة ، وتغلبوا على حراسها . ثم اندفعوا كالسيل الى مقر القيادة الفرنسية ، فظلوا يهاجمونه نهارا كاملا . ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه ، لمناعته ووفرة الذخيرة عند جنوده . وقتل من المجاهدين فى هذا الهجوم مائتان وجرح كثيرون ..

وكذلك هاجم الثائرون الحامية الفرنسية فى المنيا ، ثلاثة أيام متوالية . وغلبوا الحراس على أبوابها

واقتحموها . ولكن الفرنسيين فى اليوم الثالث ، تغلبوا عليهم بعد أن قتلوا منهم عددا كبيرا

وقد ذكرت مصادر فرنسية أنه لولا تراخي بعض أهالي مدينة المنيا فى نصرة اخوانهم . لما تغلبوا عليهم

وقد أسقط الفرنسيون ثلث الضرائب التى فرضوها على أهالى المنيا . مكافأة لهم على سكينتهم فى أيام المعركة الثلاثة . وزادوا ما أسقطوه على الضرائب المقررة على أهالى القرى التى هاجمتهم

ومن القرى التى قاومت الفرنسيين « مطرطاش » و « وسيلة » و « سرسنا » فى مركز سنورس . وقد حرقت القرية الاخيرة لما لقى الفرنسيون من أهلها . وحرقت أيضا بلدة « الغنايم » لاسرافها فى المقاومة . وكذلك « أبو مناع » وما جاورها من القرى و « أبو جرج » . وهذه الاخيرة قتل وحرق من اهلها الف مجاهد ..

وعندما قهر الفرنسيون اهل « ملوى » واستولوا عليها ، وجدوا فيها ثمانية مدافع . كان المجاهدون يطلقون قنابلها على السفن الفرنسية التى تعبر النيل

وقامت ، فى سوهاج ، ثورة قوامها أربعة آلاف من الفلاحين ، وسبعمائة من الفرسان . أبدى فيها المصريون كل شجاعة . ولكن مدافع الفرنسيين ،واسلحتهم الحديثة الوافرة ، كفلت لهم الغلبة على رجال الثورة . بعد أن فتكوا بهم ـ ولم يكن سلاحهم سوى الحراب والبنادق القديمة ـ فقتل منهم ثمانمائة

وفى « الصوامعة » تجمع ثلاثة آلاف من الفلاحين واطلقوا نيرانهم على الفرنسيين ولكنهم تغلبوا عليهم . فقتل وغرق منهم ألف مجاهد

ولكن هذه الهزائم ، أو المذابح ، لم تضعف من عزيمة المجاهدين ، بل تجمعوا مرة أخرى فى المنيا ، وبنى سويف، والفيوم وأهم القرى ، والتقى الفان منهم بالفرنسيين عند طهطا ، فهاجموهم . ولكنهم تغلبوا عليهم ايضا ، بوفرة سلاحهم ، وقتلوا من الثائرين تسعمائة وخمسين

وقامت معركة بين المجاهدين والفرنسيين ، فى «الردسية» بالقرب من أدفو، التحم فيها الفريقان بالسلاح الابيض ، وقتل فيها من الفرنسيين سبعة وثلاثون ، منهم ضابط ، وجرح أربعة وأربعون

وفى قنا هاجم العرب والفلاحون الفرنسيين ، ولكنهم هزموا بعد أن جرحوا القائد الفرنسى جرحا بليغا

معركة نجع البارود

وجرت عند قرية «نجع البارود » بالقرب من قوص ، احدى المعارك الكبرى فى حركة المقاومة بالصعيد . فقد هاجم جيش من المجاهدين ـ يقدر بعض المؤرخين عدده بعشرة آلاف ـ الاسطول الفرنسى وكان عدد سفنه اثنتى عشرة سفينة ، منها سفينة القائد العام . وكانت من قبل سفينة نابليون الخاصة ، التى سماها « ايطاليا » تخليدا لذكرى انتصاراته فيها . بدأ المجاهدون هجومهم باطلاق الرصاص على السفن ، فأطلقت هذه مدافعها عليهم ، وقتلت كثيرين منهم ، ولكنهم لم يتقهقروا ، بل زاد تجمعهم وكثر عددهم ، ثم نزل كثيرون منهم الى النيل يسبحون ، ويهاجمون السفن ، حتى استطاعوا أن يستولوا عليها عنوة ، وقهرا . وساقوها الى شاطىء النيل ، فأفرغوا ما تحمل من ذخيرة ومؤن ، ثم ركبوها وساروا بهـا ليستولوا على « ايطاليا » سفينة القائد ، التى ضاعف

جنودها اطلاق مدافعهم على الثائرين . ولكنهم مع ذلك استطاعوا ان يلحقوها ، وأن يصعدوا الى ظهرها . فأمر قائدها عند ذلك بنسف مستودع البارود فيها ، ثم ألقى بنفســه فى النيــل ، وكذلك فعــل من بقى من رجاله . وانفجــرت الســفينة ، وقتل بسبب ذلك كثيرون من المصريين . ولكنهم لم يتركوا قائدها ومن سبح معه ، فطاردوهم فى النيل حتى قتلوهم جميعا . وجرح قائد السفينة القومندان مورندى ، جرحا قاتلا ، ثم مات فى النيل ، ولم ينج من رجال هذا الاسطول احد . وكانوا خمسمائة من الضباط والجنود ، والبحارة . وقد اعتبر الفرنسيون هذه الخسارة أكبر خسارة لحقتهم فى مصر . وبلغت أنباء هذه المعركة نابليون ، وهو فى حملته على سوريا ، فحزن أشد الحزن ، على خسارة رجاله فيها ، وعلى فقد سفينته الخاصة « ايطاليا » وكانت أثيرة عنده

وفى « برديس » هاجم الفلاحون قوة فرنسية كبيرة ، واصلوها نارا حامية ، لم تجد معها سبيلا الى النجاة الا بالفرار الى جرجا . وتبعها المجاهدون ، ومعهم اهل البلاد والقرى التى مروا بها ، حتى بلغ عــددهم ثلاثة الاف . وهاجموا الفرنسيين فى جرجا واستطاع بعض المجاهــدين دخولها ، ولــكنهم ردوا بعد أن قتــلوا وجــرحوا بعض الفرنسيين وقتل منهم مائة وخمسون

وتجمع فى « قفط » ثلاثة آلاف من الفلاحين والعرب ، وحاربوا قوة فرنسية فهزموها . والتقى الجنرال بليار بهم بعد ذلك وهم يحملون رؤوس القتلى الفرنسيــين على أسنة حرابهم ، وبعض الفلاحين يلبس ملابس القتلى من الجنود الفرنسيين . وبأيديهم بعض الآلات الموسيقية التى غنموها منهم . وحارب الجنرال بليار المجاهــدين

وحاربوه حربا عنيفة ، انتهت بهزيمتهم ، وانسحابهم الى « ابنود » ..

وفى هذه المدينة وقعت احدى المعارك الكبرى ، بين المجاهدين ، والفرنسيين . استخدم فيها المجاهدون ما غنموه من مدافع الاسطول الفرنسى ، الذى استولوا عليه فى معركة نجع البارود • وقد دامت هذه المعركة ثلاثة أيام متوالية ، مستعرة الاوار • وأظهر فيها المجاهدون المصريون اعظم ضروب البسالة والشجاعة . ولما تغلب عليهم الفرنسيون ظلوا يحاربونهم فى شوارع المدينة ، ويدافعونهم عن كل بيت فيها ، وعن كل شبر من أرضها. فلم يجد الفرنسيون بدا من اشعال النار فيها فأشعلوها، ولكن المجاهدين تحصنوا فى مسجدها المنعزل ، وفى قصر يجاوره ، وواصلوا اطلاق النار منهما ، فأحرق الفرنسيون القصر ، والمسجد أيضا

واستطاع الفرنسيون فى اليوم الثالث من المعركة ، أن يقتحموا القصر ، وقد أحالته النار هشيما ، فوجدوا فيه ثلاثة من المجاهدين ، وقد اثخنتهم الجراح ، ومع ذلك فهم يقاومون ، وظلوا يحاربون وجراحهم تسيل بالدم ، حتى قتل الفرنسيون أكثرهم

وفى هذه المعركة المشرفة ، قتل من المجاهدين مايقرب من ستمائه ، وجرح كثيرون ، ومن الفرنسيين خمسة وثلاثون ، وجرح مائة وأربعة وثلاثون

وفى « بئر عنبر » على الطريق بين قنا والقصير قامت معركة عنيفة بين الف من المجاهدين وخمسمائة من المماليك ، وبين الفرنسيين قتل فيها من الفرنسيين اربعة واربعون ، وجرح عشرون ،وكان من القتلى عدد من الضباط . وأوشك الجنرال ديزيه نفسه ، القائد العام فى الوجه القبلى ، أن يقتل

مذبحة بنى عدى

وكانت « بنى عدى » من المراكز الهامة التى تحصن فيها المجاهدون . وتجمع من أهلها ومن غيرهم ، نحو اربعة آلاف مسلحين . وقدمت حملة من الفرنسيين لحربهم . ونشبت بين الفريقين معركة حامية ، قتل فيها الكولونيل بينون ، قائد الحملة . واشتدت الحرب التى استمات المجاهدون فيها ، حتى تحصنوا - وهم يقاتلون - فى شوارع المدينة ، وأزقتها ، وبيوتها . وكانوا يدافعون عنها بيتا بيتا . فعمد الفرنسيون - كعادتهم - الى اشعال النار فيها . وبذلك استطاعوا كسر مقاومتها، والتغلب على الابطال من أهلها

وقد وصف بعض القواد الفرنسيين هذه المعركة بأنها كانت مذبحة شديدة الهول . وقدرت بعض مصادرهم القتلى ، والحرقى ، من المجاهدين بألف ، وقدرهم مصدر آخر بثلاثة آلاف ..

وبعد ان احترقت « بنى عدى » واستسلم المجاهدون فيها . اقتحمها الفرنسيون ودخلوا بيوت المجاهدين من أهلها فنهبوا منها كثيرا ، وأموالا عظيمة ، وودائع جسيمة، كما يقول الجبرتى . وقد ذكر ديزيه القائد العام ، أن كثيرا من الجنود ، استولى الواحد منهم على عدة آلاف ريال . ووصفت بعض المصادر الفرنسية أهل بنى عدى بأنهم « أشجع سكان مصر » • وذكر دافو أن الثورة كانت تشمل « بنى عدى » من اقصاها الى اقصاها . وأن أهلها فنهبوا منهاشيئاكثيرا،وأموالا عظيمة،وودائع جسيمة، السفن الفرنسية • وذكر أيضا أن بعض الجنود نهب من بيوت أهلها خمسة عشر ألف فرنك ذهبا • وبعضهم نهب عشرين ألفا

وفى « جهينة » هاجم المصريون الحامية الفرنسية ، وتغلبوا عليها ، واقتحموا البلدة ، واستولوا عليها ، ولم يستطع الفرنسيون أن يستردوها الا بعد أن ضربوها بمدافعهم . وقد تحصن المجاهدون فى بيت من بيوتها ، وحاربوا فيه ساعات متوالية حتى اقتحمه عليهم الفرنسيون ، وقتل فى جهينة ، من المجاهدين ، ثلاثمائة

شجاعة صبى مصرى

ومن الحوادث التى تدل على تأصل روح المقاومة فى نفوس المصريين ، ما سجله الفرنسيون عن طفل ريفى ، من اهل قرية الفقاعى ، مركز ببا . فقد هاجم هذا الطفل ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، جنديا فرنسيا وخطف بندقيته . ولكن جنديا آخر أسرع فضربه بالسيف على ذراعه . ثم أخذه الى الجنرال ديزيه . فلما سأله القائد عما فعل ، أبدى شجاعة فائقة ، واعترف بفعلته . وأبى أن يدل على محرضين له . ثم قال للقائد :

« اليك رأسى فأمر بقطعه » وأعجب القائد ديزيه بهذا الطفل ، وبما أبداه من شجاعة وقوة ، وثقة بنفسه . ثم أمر بضربه ثلاثين جلدة ، تحملها صابرا ، جلدا ، لا يتململ ، ولا يتوجع . وبقى ديزيه يذكر هذا الطفل الشجاع من اهل الصعيد ، ويقول : لو أحسنت تربية هذا الطفل لكان منه بطل عظيم

ومن الامور ذات الدلالة ايضا على صلابة أهل الصعيد . ماسجله الفرنسيون كذلك من ان البحارة الفقراء ، الذين يسيرون بقواربهم حول جزيرة فيلة : « أنس الوجود » جنوبى أسوان . لم يتمكنوا الفرنسيين من الاستيلاء على هذه القوارب ، عندما احتاجوا اليها لمطاردة المجاهدين فى

الجنوب . وقد قاتل هؤلاء البحارة الفقراء الفرنسيين عن قواربهم قتالا شديدا . وارى من حقهــم ، ومن الوفاء لذكراهم ، أن انقل ما شهد به الجنرال بليار من حسن بلائهم ، وشجاعتهم ، رجالا ونساء

يقول بليار فى مذكراته « حمل الاهـالى أسلحتهم ، وصاحوا صيحات القتال . ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب ، ويحثون التراب فى وجوهنا . أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذين ركبوا البحر . وكنت قـد أحضرت معى مدفعا لاخضاعهم ، فدعوتهم الى الصلح والسلام . فكان جوابهم : أنهم لا يقبلون منا كلاما ، وانهم لا يفرون من امامنا كما يفر المماليك ..! واستأنفوا اطلاق الرصاص فجرح ثلاثة من رجالنا . ولم يكن لدينا مراكب نصل بها الى جزيرة « انس الوجود »

« وفى اليوم التالى ، وصلنا الى الجزيرة ، فأطلق علينا الفلاحون الرصاص (١) » واستولى الفرنسـيون اخر الامر على الجزيرة وكان أهلهـا الفقراء قد تركوها وتركوا فيها مواشيهم . فأخذها الفرنسيون ، وأخذوا ما كانوا يختزنونه لطعامهم من التمر

وذكر بليار أنهم قتلوا من هؤلاء المجاهدين الفقراء ثلاثين، واستولوا على مائتى بندقية ، ومائتى طبنجة وسيف ، وكثير من التمر واللحم والمؤن ..

---

(١) ص ٣٩٦ تاريخ الحـركة القومية ـ الجزء الاول



شهادة القواد الفرنسيين

هذه هى وقائع المقاومة المصرية الباسلة فى الصعيد . وقد ذكرت المصادر الفرنسية أن من الذين اظهروا بطولة كبيرة فى هذه الوقائع ، عرب الهوارة ، والجميعات ، والبقوشة . كما ذكر الجنرال دافو أن جميع اهالى البلاد فى الصعيد ، كانوا يحملون السلاح . وكان أهل الصعيد يجمعون الى هذه المقاومة الايجابية العلنية ، مقاومة أخرى سلبية ، لا تقل فى عنفها ، وعنادها عن تلك . وكان لها اثر غير قليل فى اضعاف سطوة الفرنسيين . وجعل احتلالهم للبلاد غير مفيد ، بل غير هين ولا يسير . فقد كان الفرنسيون يحسون دائماً أنهم فى بلد يكرههم كل من فيه ، ويعاديهم ، ويتربص بهم ، ويعمل جاهداً بكل حيلته وقوته للقضاء عليهم ، وتنغيص حياتهم

كتب ذلك الجنرال بليار فى يومياته فقال : « ان كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان . لانهم يخلون قراهم قبل أن نصل اليهم (١) » وفى هذا أيضا

---

(١) تاريخ الحركة القومية ــ الجزء الاول ص ٣١٣

دليل على القسوة البالغة، التى كان يجنح اليها الفرنسيون فى معاملة اهل تلك القرى ، بسبب الروح العدائية التى كانوا يلاقونهم بها .. وكتب بلیار أيضا الى الجنرال ديزيه يصف المقاطعة السلبية من أهل الصعيد :

« اننا نعيش هنا عيشة ضنكاء ، فان جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ولا نجد فيها شيئا من القوت . ولا نرى فلاحا واحدا يدلنا ، أو يأتينا بالاخبار، أو يحمل رسائلنا (۱) » ..

وكتب ديزيه رسالة الى نابليون يقول فيها : « ليس لدى معلومات عن الجنرال بليار .. ان البلاد فى ثورة .. وليس من السهل ان نتبادل الرسائل فى سرعة . وانى أطلب الذخائر من القاهرة فقد نفذت ذخائرنا .. على انى لا اكتمك الحقيقة ، وهى أننا لن نكون سادة للبلاد . لاننا اذا اخلينا بلدة لحظة واحدة من الجنود ، عادت الى حالتها القديمة (۲) » ..

ومن رسالة كتبها الادجودان دنزلو الى الجنرال برثييه: « اذا لم تتفضلوا بارسال الادوية الينا ، فان مرضانا الذين يزداد عددهم كل يوم ، سيموتون من البؤس والعذاب ويحق لى أن أتساءل : هل نحن فى منفى سحيق بالصعيد فلا يذكرنا أحد .. ؟ انى أكرر لكم اننا فى بلاد أصعب مراسا من مديرية المنصورة ، واذا سرنا الى جهة من الجهات ، ظهرت الثورات فى الاماكن التى يخليها الجنود . فعلينا أن نكون دائما على أهبة الزحف والتدمير . فمتى تنتهى هذه الحالة (۳) ؟ .. »

وواضح من هذه الرسالة الاخيرة خاصة ، ان ما لقيه الجنود الفرنسيون وقوادهم من مقاومة أهل الصعيد ،

---

(۱) تاريخ الحركة القومية ، الجزء الاول ص ۳۱۳
(۲) ، (۳) المرجع السابق ص ٤١٤

قد أسخطهم ، وأضعف روحهم المعنوية ، وترك فى نفوسهم أثرا قويا لم يستطيعوا أن يتحملوه

وليس أدل على ذلك السخط والغضب اللذين امتلأت بهما نفوس الفرنسيين من ذلك الامر الذى اصدره القائد العام ديزيه ، الى الجنرال بليار بأن يقطع رأس كل من لا يطيع أمره من العمد . وأن يقطع النخيل ، ويحرث القرى الثائرة وأن يعاقب أهلها بأشد ما يمكن من القسوة وأن يفرض عليها غرامة لا تقل عن عشرة الاف ريال

وقد جمع ديزيه نفسه مائتى رجل من كبار الاعيان ؛ ليكونوا رهائن عنده فى اسيوط . حتى لا يثور أهل البلاد التى اخذوا منها . وكان هؤلاء الرهائن ، من أهل البلاد الواقعة بين جرجا واسيوط وحدهما . وأمر قواده الآخرين باعتقال رهائن أخرى من مناطقهم

ومع كل ذلك، يكتب الجنرال ديزيه رسالة الى نابليون، يصف بها حال جنوده فيقول : « اننا نسير بلا انقطاع وقد ساءت حالة الجنود فى ملابسهم ، وأحذيتهم . ولم نستطع للآن أن نجمع الا النزر اليسير من أموال الميرى ، على الرغم من الجهود التى بذلناها . ان دعاة الثورة مثابرون على نشر دعايتهم . وان علينا ان نحارب ثلاث قوات متجمعة . وهم العرب القادمون من القصير ، والمماليك ، والاهالى . فليس من السهل اخضاع هذه البلاد .. اننا هنا ـ كان ديزيه فى قوص عند كتابة هذه الرسالة ـ كأننا فى أقصى الدنيا . وان حالتنا محزنة . والملاحة فى النيل تكتنفها الاخطار »

ويقول ريبو انه لم يهدأ لهم ـ للفرنسيين ـ بال ولم يستقر لهم قرار ، بل كانوا هدفا للمفاجآت ، والمعارك غير المنتظرة . لانهم فقدوا الراحة والطمأنينة . واضطرتهم هذه المقاومة الى مداومة الحملات ، والرحلات المنهكة

للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال

وبعد انتهاء المقاومة ، كان الفرنسيون يعيشون فى قلق دائم ، وخوف ، وقد كتب ديزيه الى نابليون فى ذلك يقول : « ان من الخطر أن نترك جهة واحدة فى مصر العليا ، دون أن نحتلها بجنودنا ، واننا لم نستطع أن نشتت أعداءنا الا بمتاعب وحملات شاقة لا هوادة فيها . والبلاد مع ذلك مستعدة للثورة » ..

ولم يستطع الفرنسيون ، حتى بعد تغلبهم على المقاومة المسلحة فى الصعيد ، أن يجمعوا من أهله أموالا ، ولا غلالا ، ولا جيادا . وفى بنى سويف ، استطاع بعض الجنود الفرنسيين الاستيلاء على بعض الغلال . فخرج أهلها على السفن التى حملتها فى النيل ، واستولوا على الغلال . وأسروا الفرنسيين الذين يحرسونها

وقد ذكر ديزيه فى رسالته السابقة المماليك ، فيمن ذكر من القوات التى يحاربها . وقد كان للمماليك نصيب غير قليل فى ازعاج الفرنسيين ، وفى تعزيز حركة المقاومة فى الصعيد ولكن النصيب الاكبر ، والعبء الثقيل فى هذه الحروب والثورات ، كان الشرف فيه للفلاحين وابناء الشعب من سكان هذه البلاد ، كما أوضحنا سابقا

وقد ذكر أمين باشا سامى أن عدد الثائرين من الوطنيين ، اى غير المماليك ، الذين حاربوا الجنرال ديزيه فى الصعيد ، كان عشرين الفا (١) »

وذكر نابليون أن جيش مراد بك الذى حارب جنوده فى « سمهود » كان عدده اثنى عشر الفا . منهم سبعة آلاف فارس من المصريين ، وثلاثة آلاف من المشاة ، ولم يكن فيه من المماليك سوى ألف وخمسمائة

وهذه الآلاف العشرة هى : طبعا ، غير عشرات الالوف

---

(١) ١٢١ تقويم النيل ـ الجزء الثانى

التى اشتركت فى الثورة على الفرنسيين فى الصعيد . أو تصدت لهم ، دفاعا عن بلادها ، وقراها وأموالها

ونستطيع أن ندرك نظرة الشعب الى المماليك وجهدهم فى هذه المقاومة ـ على الرغم من شجاعتهم ـ من هذه الاشارة التى اشار بها اليهم أولئك الفقراء ، من أصحاب « النوارب » الذين وقفوا أمام الفرنسيين فى جزيرة فيلة

وقد كانت مقاومة أهل الصعيد ـ الى جنب عوامل أخرى ـ سببا فى نقص عدد جنود الفرقة التى كان يقودها ديزيه من خمسة آلاف الى ألفين ، فى مدى شهرين

ويعترف الفرنسيون بأنهم ، بعد كل هذه التضحيات والجهود ، لا يستطيعون أن يحكموا البلاد ، ولا أن يأمنوا على أنفسهم من ثورتها ، ولا أن ينالوا شيئا من أموالها أو ما فرض عليها من الضرائب

ولكن عندما تجددت بعد ذلك الثورة فى القاهرة على الفرنسيين ، فى مارس سنة ١٨٠٠ ـ وكان درويش باشا يقيم فى الصعيد ، حاكما من قبل العثمانيين ، بعد صلحهم مع كليبر ـ تقدم له من أهل الصعيد عشرة آلاف مقاتل ليزحف بهم الى القاهرة يحاربون الفرنسيين فيها . كما قدم له أهل الصعيد شيئا عظيما من الخيول والاغنام ، والحبوب ، ولكن مراد بك ، وكان قد صالح كليبر وتولى حكم الصعيد ، تحت الولاء الفرنسى ، طارد درويش باشا ، وشتت من معه من أهل الصعيد وساق ما قدموه من الخيل ، والاغنام ، والحبوب ، فقدمه هدية للفرنسيين

وقد كان الالفي على نقيض سيده مراد ، مخاصما للفرنسيين مدة اقامتهم كلها فى مصر ، حاربهم حربا عنيفة فى موقعة امبابة ، ثم بقى بعد الهزيمة يحاربهم ويغير على جنودهم ما استطاع



الثورة الكبرى

ليس من التجاوز والمبالغة ، ولا من المجافاة للحق والواقع ، أن نسمى « بالثورة الكبرى » هذه الثورة التى قامت فى القاهرة مرة أخرى ، بعد سبعة عشر شهرا من ثورتها الاولى ، وسنرى من تفصيل أحداثها ، وما بذل فيها القاهريون من جهد ، وما تحملوا فيها من بلاء ، وما أظهروا فيها من ضروب البسالة النادرة ، انها كانت ثورة كبرى ، من غير تجاوز ، ولا مبالغة ، ولا مجافاة للحق والواقع ..

بدات الثورة فى بولاق يوم ٢٠ مارس ١٨٠٠ حيث قام أهلها بأسلحتهم وعصيهم فهاجموا معسكر الفرنسيين على النيل . فقتلوا من جنودهم ، وشتتوا . واستولوا على جميع ما كان فيه من ذخيرة ومؤن . ثم ذهبوا الى مخازن الغلال التى يختزنها الفرنسيون فاستولوا عليها . وقاموا بعد ذلك يطوفون بالقاهرة يقيمون حولها من الاسوار والحصون ما استطاعوا

ثم امتدت نيران الثورة من بولاق ، حتى شملت كثيرا من أحياء القاهرة . فهاجم الثائرون المعسكر العام

للفرنسيين بالازبكية . وكان عدد المهاجمين ، كما تقدره المصادر الفرنسية ، عشرة آلاف . ولكن هذا المعسكر العام كان محصناً غاية التحصين . تملأه الجند والذخائر، وتحيط به المدافع الكبار . فلم يستطع المهاجمون اقتحامه ..

وامتد لهيب الثورة حتى شمل القاهرة كلها . وتنادى الناس جميعا بالكفاح والجهاد والحرب . فلبى نداءهم الرجال ، والنساء ، والاطفال . حتى صار عددهم خمسين الفا . وعادوا مرة أخرى يهاجمون المعسكر العام ، ومعهم في هذه المرة المدافع . ولما لم يجدوا لها قنابل ، استعاضوا عنها بكرات الموازين من الحديد والاحجار التى يزن بها التجار والبائعون بضاعتهم . وظل هجوم هؤلاء الثائرين يوما ونصف يوم متصلا قويا ، حتى قدمت نجدة أرسلها الجنرال كليبر ، فحاربت الثائرين من خلفهم حتى رفعت حصارهم عن المعسكر العام . وكان مع الثائرين في هجومهم هذا عشرون مدفعا ، يضربون بها المعسكر ، وبيت نابليون

وكانت القلاع التى أقامها الفرنسيون فى أطراف القاهرة، وعلى مرتفعاتها ، تصب قنابلها ونيرانها على المحاربين ، والمسالمين ، من العجزة والاطفال والمرضى ، فى كل انحاء المدينة ..

وتوالت نجدات القوات الفرنسية لحاميتهم فى القاهرة. ونيرانهم ، وقنابلهم تفتك بالثائرين، وتحصدهم كالهشيم. ولكنهم لم يضعفوا ، ولم يستسلموا ، ولم يهابوا الموت. فاستطاعوا أن يقتحموا بيوت القواد الفرنسيين وأن يستولوا عليها . وكذلك فعلوا ببيت فرقة المهندسين . وان يقتحموا بيت محافظ القاهرة مصطفى اغا ، صنيعة الفرنسيين الذى تسلط على أهل القاهرة بالاذى والعذاب

والتنكيل . اقتحم عليه الثائرون بيته ، وقتلوه وكذلك قتلوا بعض دعاة الهزيمة ، الذين كانوا يدعونهم للمسالمة. واعتدوا على السيد خليل البكرى اعتداء شديدا ــ وكان صديقا للفرنسيين ــ واشتركت نساء القاهرة فى الثورة والتحريض عليها ، حتى أخذ الفرنسيون بعضهن أسيرات (١)

ورأى الثائرون المجاهدون أن يمنعوا عن الفرنسيين ما يأتيهم من المدد فسدوا أبواب القاهرة ، وأقاموا خلفها المتاريس فى باب اللون ، والمدابغ ، والمحجر ، والشيخ ريحان ، والناصرية ،وقصر العينى ، وقناطر السباع « وسوق السلاح » وباب النصر ، وباب الحديد والقرافة ، والبرقية « الغريب والدراتية » والرويعى ، والسويقة . وكذلك قفلوا شوارع المدينة بالاخشاب ، وجذوع الاشجار، وكان بعض هذه المتاريس والحواجز يرتفع الى اثنى عشر قدما • مع المناعة والصلابة • والناس من خلف الحواجز والمتاريس يقاتلون قتال الابطال . وكان بعض الثائرين فى مسجد أبى العلاء ، وعلى مئذنته ، فظلوا يقاتلون حتى قتلوا جميعا (٢)

مصنع للبارود

وأنشأ الثائرون فى يوم وليلة مصنعا للبارود ، فى بيت قائد أغا بالخرنفش ، كما أنشأوا مصنعا آخر لاصلاح الاسلحة والمدافع ، واخر لصنع القنابل ، وجمعوا لهذا وذاك ماوجدوه تحت أيديهم من الحديد فى المخازن والمتاجر ، والمساجد أيضا . وتقدم العمال للعمل فى هذه المصانع متطوعين • تقدموا بما عندهم من الحديد

(١ ، ٢) ظهر الورقة ٨٤ من مخطوط مظهر التقديس للجبرتى

والآلات. وأخذ فريق منهم يجمع ما يتساقط من قنابل الفرنسيين فيصلح من أمره ثم يقذف به الثائرون عليهم من جديد

ومن لم يستطع ان يشارك بيده فى الثورة ، قدم لها المال والقوت والازواد والمآكل ، وكل مايعين الثائرين وينفعهم ..

وظهرت بين المصريين فى هذه المحنة ، روح التكافل والتعاون عظيمة رائعة . يستوى فى ذلك العظيم والحقير، والغنى والفقير ، والشيخ والفتى . يقول الجبرتى : « باشر السيد المحروقى ـ كبير تجار القاهرة ـ الكلف والنفقات والمآكل والمشارب . وكذلك جميع أهل مصر كل انسان سمح بنفسه ، وبجميع ما يملكه . وأعان بعضهم بعضا . وفعلوا مافى وسعهم وطاقتهم من المعونة . وأهل الارياف القريبة تأتى بالميرة والاحتياجات من السمن ، والجبن ، واللبن والغلة ، والتبن ، والغنم فيبيعونه لاهل مصر »

فعل ذلك أهل القاهرة وضواحيها ، وكان جند العثمانيين فى نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة ، قد هزموا شر هزيمة ، فى موقعة عين شمس امام الفرنسيين فاستطاع هؤلاء ان يفرغوا لثورة القاهرة ، وقويت الروح المعنوية عند جنودهم ، وتجددت عزائمهم

اما من بقى فى القاهرة من العثمانيين ، أو المماليك ، أو فر اليها بعد الهزيمة . فقد شارك فى ثورة القاهرة راضيا أوكارها . ولكنها كانت مشاركة اضرت بالقاهرة وثورتها أعظم الضرر كما نرى بعد

الخدعة

وعاد كليبر ، القائد العام ، ونائب نابليون ، الى

القاهرة بعد سبعة أيام من الثورة • فوجدها شعلة من النار . ووجد أنه لاقبل له بهذه الثورة العاتية ، الا أن يأخذها بالخديعة والمكر والمخاتلة . فأخذها بهؤلاء جميعا ، من حيث تروج الخديعة وينفع المكر وتستساغ المخاتلة ، وكان ذلك هينا سهلا مع العثمانيين والمماليك

استطاع كليبر ان يستخدم كبيرا منهم هو مصطفى باشا كوسا ـ القائد التركى الذى اسره الفرنسيون فى موقعة أبى قير ـ فى احباط الثورة ، وتبريد نارها . واشترك معه في هذه الخيانة كبير اخر منهم هو القائد ناصف باشا ـ الذى دخل القاهرة منهزما فى موقعة عين شمس ، يوم بدء الثورة ـ فعقد القائدان صلحا مع كليبر ، اشترك فيه معهما بعض المماليك ممن كان يحرض القاهريين على الثورة

وفى هذا الوقت نفسه ، تقدم مراد بك بعرض صلح على كليبر ، فصالحه حتى يفرغ بعد ذلك للثائرين من أهل القاهرة ، الذين أبوا أن يصالحوا ، ولم يسمعوا لناصف باشا ، ولا لمصطفى باشا ، ولا لغيرهما ممن كان يدعوهم له ..

عند ذلك أشار الحليف الجديد مراد بك ، على كليبر ، بحرق القاهرة حتى يتغلب على الثائرين فيها ، وأرسل اليه مراد عددا من السفن ، تحمل الحطب والمواد الحارقة ليحرق المدينة الباسلة المكافحة ، التى أبى أهلها أن يستسلموا . وفضلوا الموت على الهزيمة والعار والتخاذل . وقد كان مراد هذا يتولى يوما حكم المدينة أشبه مايكون فيها بالملك المتوج ، وهى التى جعلت منه حاكما صاحب سلطان وحول . وكان من قبل غلاما يباع ويشترى ..

ولم تقع هذه الخيانات وحدها ضد ثورة القاهرة . بل شاء الله ان تمطر السماء مطرا غزيرا ، ساعد الفرنسيين فى هجومهم وعوق الثائرين عن دفاعهم ، وجعل حركتهم وانتقالهم شاقين عسيرين ، فى شوارع القاهرة الضيقة وأزقتها وأوحالها. وقضت القاهرة فى هذه الحال الشديدة من الضنك ، وهى تقاول ببسالة ، عشرة أيام . أقام فيها أهلها الحصون المنيعة ، فى بولاق ، ومصر القديمة . وحولوا جميع المخازن والوكائل التى على النيل ، الى قلاع ومتاريس . حتى صارت الملاحة فى النيل تحت رحمتهم . ثم ظن الفرنسيون بعد هذه الايام العشرة أن الثائرين قد ضعفت روحهم ، وأصبحوا مستعدين للصلح بعد هذه الشدائد ، بعد خيانة العثمانيين والمماليك لهم ، فأرسلوا عن طريق ناصف باشا ونائب الدولة عثمان بك يطلبون العلماء ليوسطوهم فى الصلح عند رجال الثورة . فذهب الى كليبر الشيوخ : الشرقاوى ، والمهدى ، والسرسى ، والفيومى ، وآخرون . ثم عادوا الى رجال الثورة يحدثونهم بما طلب اليهم كليبر . ولكنهم وجدوا عند رجال الثورة مالم يخطر لهم ببال . فقد قابلوهم أسوأ مقابلة وأغلظوا عليهم فى القول ، وأهانوهم وسبوهم وشتموهم ، وضربوا الشرقاوى ، والسرسى ورموا عمائمهم ، وأسمعوهم قبيح الكلام . وصاروا يقولون : « هؤلاء المشايخ . ارتدوا وعملوا فرنسيس . وأخذوا منهم دراهم » هكذا يصف الجبرتى غضب الثائرين على دعوة الصلح . واتهامهم العلماء بالكفر والرشوة

وكان الشيخ السادات فى بيت الصاوى ، فخاف غضب الثائرين . ولم يستطع الخروج الا بحيلة . حيث جعل أمامه مناديا ينادى فى الناس أن يلزموا المتاريس ، ليوهمهم انه لا يقول بالصلح كما يقول بقية الشيوخ

وأرسل كليبر رسولا الى أهل بولاق يطلب اليهم الصلح والتسليم ، فأبوا ، وقتلوا رسوله (١)

رفض المجاهدون أن يسلموا للفرنسيين ، وأبوا أن يسمعوا كلمة الصلح ، وهم يعلمون ماسيلقون بعد هذا العناد من بلاء ومحنة .. ولكنهم أرادوا أن يضربوا مثلا

وبدأ كليبر يعمل حيلته ويبذل كل جهده فى تعزيز قواته فى القاهرة ، حتى تضرب أهلها ضربة لا يفيقون منها أبدا . ولا يستطيعون معها أن يصبروا على الكفاح ، والثورة والمقاومة

القاهرة تحترق

وكان كليبر ، بعد تعزيز قواته بكل مايستطيع ويملك ، قد أمن جانب مراد بك بصلحه معه ، بل ضمن معونته أيضا . وكذلك أمن جانب العثمانيين وقائديهم مصطفى باشا وناصف باشا . فبدأت القوات الفرنسية ، بعد ذلك ، يوم ١٥ من ابريل ، تدك القاهرة دكا . وأمر الجنرال كليبر قواده أن يبذلوا جهدهم كله للاستيلاء على باب النصر ، والازهر ، وأبى الريش . وظلت الحرب مستعرة الاوار خمسة أيام ، تداول فيها الثائرون معهم النصر والهزيمة . خمسة أيام ، كانت كل لحظة من نهارها وليلها حربا وجلادا ، وهجوما ودفاعا . ولكن المجاهدين فى كلا الحالين ، النصر والهزيمة ، كانوا عمالقة حرب لم يخضعوا ولم يلينوا ولم يجبنوا . ولم يفتر كفاحهم لحظة من ليل او نهار . كان الشعب ضعيف التسليح ولكن الناس جميعا كانوا محاربين . أو كما يقول

(١) ص ١٤٤ الجزء الثانى من كتاب تقويم النيل

الجبرتى « كل من كان فى حارة من أطراف البلد ، انضم الى المعسكر . بحيث سار جميع أهل مصر والعساكر كلها واقفة عند الابواب والمتاريس والاسوار »

بولاق الباسلة

أخذ الفرنسيون فى بدء هجومهم يسقطون قنابلهم على بولاق ، مركز الثورة ومنبعها ، فهدمت بيوتها ، ومتاجرها وقصورها . واحترقت كلها . وقتل من أهلها ، محاربين ومسالمين ، خلق كثير ، ودفن كثير منهم تحت التراب . واحترق كثيرون ايضاً أحياء . وظلت الحرائق مشتعلة فى بولاق أكثر من ثمانية أيام

وعجز الابطال المجاهدون عن مواصلة القتال ، وقد اصبحت بولاق كلها حريقا واحدا . فرضوا بالصلح ، وصالحوا الفرنسيين وجعلوا الخليج فى وسط القاهرة ، فاصلا بينهم وبين الفرنسيين . حتى يخرج من بقى من جنود العثمانيين والمماليك

وبعد ان قبل الفرنسيون صلح رجال الثورة . فرضوا عليهم — على أهل بولاق وحدها — مائتى ألف ريال ، وعلى تجارها ثلاثمائة ألف ، تجبى عروضا من السكر ، والبن ، والزيت ، والقطران ، والتيل ، والحديد ؛ والرصاص ، وغير ذلك وامروهم بأن يسلموا ٤٠٠ بندقية ومائتى طبنجة ، وقتلوا الحاج مصطفى البشتيلى زعيم الثورة . كما غصبوا كثيرا من النساء ، والفتيات ، والاطفال ..

وقد وصف الجبرتى ، وهو معاصر لهذه الثورة ، ماحل ببولاق ، وأهلها ، وصفا مؤثرا يحزن الفؤاد . ووصف جهاد أهلها ، وصبرهم ، وحسن بلائهم ؛ وصفا مشرفا .

تشمخ له أنوف أحفادهم ، وتعلو به رؤوسهم وتسعد قلوبهم ..

ونحن نترك ماقال الجبرتى ، الى ماسجله مؤرخ فرنسى شاهد تلك الاحداث وهو مسيو جالان . والفضل ما شهدت به الاعداء ..

« فى يوم ١٤ ابريل سنة ١٨٠٠ انذرت بولاق بالتسليم، فرفض أهلها كل انذار ، وأجابوا باباء وكبرياء ، انهم يتبعون مصير القاهرة . وانهم اذا هوجموا فهم مدافعون عن أنفسهم حتى الموت ، فأخذ الجنرال فريان يحاصر المدينة وبدأ يصب عليها من المدافع ضربا شديدا ، أملا منه فى اجبار الاهالى على التسليم لكنهم أجابوا بضرب النار .. واستبسل الاهلون فى الدفاع ، وألجأوا الى البيوت فاتخذوها حصونا يمتنعون بها . فاضطرت الجنود الى الاستيلاء على كل بيت فيها والتغلب عليها بقوة الحديد والنار . وبلغ القوم فى شدة الدفاع حدا لا مزيد بعده . وفى هذا البلاء ، عرض العفو على الثوار ، فأبوا . واستمر القتال، فجعلنا المدينة ضراما ، وأسلمناها للنهب ، وصار أهلها عرضة لبطش الجنود وتنكيلهم . فجرت الدماء أنهارا فى الشوارع ، واشتملت النار أحياء بولاق من أقصاها لاقصاها . وعادت تلك المدينة العامرة الزاهرة ، هدفا للخراب . وأكلتها أهوال الحرب وفظائعها (١)

بعد تسليم بولاق ، بدأ الفرنسيون هجوما آخر على القاهرة من جميع أطرافها ، فنسفوا بيت أحمد أغا شويكار ، المقر العام للثورة ، ثم بدأت مدافعهم تلقى قنابلها على المدينة من أوكارها فى الناصرية ، وباب اللوق ،

---

(١) ص١٧٧ ـ ١٧٨ تاريخ الحركة القومية، الجزء الثانى

والمدابغ ، والفجالة ، وأبى الريش ، وباب الشعرية . ولكن المجاهدين مع ذلك لم يسلموا ولم يستسلموا . بل ظلوا يحاربون ثلاثة أيام متوالية . وأثخنوا الفرنسيين . وأبلوا فى الدفاع عن شرفهم وشرف مدينتهم الباسلة أكرم البلاء، ولقوا فى ذلك من الشدة والمحن ما لا يوصف

شهداء تحت النار والتراب

وعمد الفرنسيون الى وسيلتهم الاخيرة ، فاضرموا النيران فى الاحياء الآهلة بالسكان فأحرقوا أحياء الازبكية ، وخط الساكت ، والفواله ، وباب البحر ، والخروبى ؛ والعدوى ، وباب الشعرية ، ورصيف الخشاب ، وباب الحديد ، وبركة الرطلى ، وكانت من أجمل متنزهات القاهرة ، وفيها من القصور الجميلة كثير

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ من ابريل . وكان هولا هائلا شاملا جميع الحارات . فصبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة . ودوى صوت الضرب فى كل مكان . وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طول الليل ، وشبت الحرائق فى جهات متعددة ، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها أثر بعض . وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ، مالم يحدث مثله منذ بدء الحصار . وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس ، فى تلك الموقعة .. ولكننا فقدنا كثيرا من جنودنا الشجعان قبل أن تصبح المدينة فى قبضة يدنا (١) » هكذا يصف مسيو جالان هجوم الفرنسيين على القاهرة

ثم يصف أثر العدوان الفرنسى عليها وامتهان قومه

---

(١) ص ١٨٠ ــ ١٨١ تاريخ الحركة القومية الجزء الثانى

حرمة الموتى والقتلى من شهدائها فيقول : « وقد لاحظت أن الحصار اضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب احياء بأكملها . وتمثل لنا شبحه المخيف فى الازبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة . فليس فى الامكان ان نخطو خطوة الا على كثبان من الخرائب والاتربة . وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم

وزاد فى هذا المنظر فظاعة ، ان الجنود ، مدفوعين بفكرة النهب ، كانوا ينبشون الجثث من تحت الانقاض والخرائب، فكلما أظهروا جثة ، زاد المنظر هولا وفظاعة(١) وقد احترقت أو دفنت تحت الانقاض أسر كاملة فى هذا الحريق

عند ذلك عاد العلماء للسعى فى الصلح ، وانهاء هذه الحرب التى لا تكافؤ فيها ٠ والتى دامت أربعة وثلاثين يوما ٠ وحوصرت فيها القاهرة حصارا محكما ستة وثلاثين يوما لقيت فيها من الهول ما أوجزنا ذكره ٠٠

وتم الصلح ، واعطى الفرنسيون لاهل القاهرة ، امانا على انفسهم . واعلن الجنرال كليبر انه لن يعاقب أحدا من المصريين ٠ حتى الذين اشتركوا فى الثورة ٠ على شرط ألا يلحق أحد من المصريين بالجيش العثمانى عند خروجه من مصر الى الشام ٠ مخافة أن يقوى هذا الجيش بهم ، وأن تقع بينه وبين الفرنسيين حرب . وهكذا خرج العثمانيون. وبقى أهل القاهرة ، وحدهم يتحملون غدر كليبر

نقض كليبر عهده لاهل القاهرة ، بعد أن صدقوا وآمنوا به ، وتركوا سلاحهم ، أو ما تبقى منه ، فانهم لم يذعنوا الا بعد أن لم تبق لهم قدرة على المقاومة وحمل السلاح

بدأ كليبر انتقامه من أهل القاهرة ، بأن فرض عليهم غرامة فادحة . قدرها اثنا عشر مليونا من الفرنكات ،

---

(١) المصدر السابق

نصفها أموال ، ونصفها عروض . وفرض عليهم أن يسلموا عشرين الف بندقية ، وعشرة آلاف سيف ، وثلاثين الف طبنجة ، واربعمائة بغل ، ومائة حصـــان . وفــرض على العلماء من زعماء الثورة مالا طاقة لهـم به . فرض على الشيخ مصطفى الصاوى مائتين وستين ألف فرنك . وعلى الشيخ محمد الجوهرى وأخيه فتوح مثـل هذا القدر . وصودرت أملاك السيد أحمد المحروقى جميعا . وفرضوا على الدور والممتلكات أجر سنة كاملة . أما ما فعلوه بالشيخ السادات فسنجمل أمره عند الحديث عنه مع الزعمـاء والابطال ..

وقد اشترك فى دفع هذه المغارم الثقيلة الفادحة أهل القاهرة جميعا . حتى الزياتون ، والجزارون ، والمزينون ، والنحاسون ، والحواة ، والقرداتية ، والدلالون ..

وكذلك فرضوا مغارم ثقيلة على اهل البلاد ، ومـلاك الاراضى الزراعية . وجعلوا الشيخ سليمان الفيومى جابيا لها . ويقول الجبرتى : ان بعض الذين فرضت عليهم هذه المغارم من أعيان البلاد « كان لا يملك عشاءه »

وسلطوا على اهل القاهرة رجلا خائنا ، ، اسمه شكر الله ، اشتط فى التسلط عليهم ، لجمع هذه المغارم الفادحـــة شططا لا يوصف . فكان يهدم البيوت اذا لم يدفع أصحابها ما عليهم فور طلبه . وكان البيت الذى لا يسكنه أحد ، تفرض ضريبته على مجاوريه ... وكان يجمع الرجـــال والنساء فى مكان واحد ، ويدخن عليهم بالقطن حتى يكاد دخانه أن يميتهم خنقا . وكان تحت امرته فريق من جند الفرنسيين ليوقعوا بأهل مصر هذا العذاب

ومنع الفرنسيون أهل القاهرة من ركوب الخيل والبغال ، سوى أربعة من كبار الشيوخ هم : الشرقاوى ، والمهدى ، والامير ، والفيومى ، وابن محرم وكان تاجرا . وجمعـوا

البغال من أصحابها فصادروها . وطلب كليبر الى العلماء أن يجيئوا اليه فى بيته . فلما جاءوا ، تثاقل عليهم وأبطأ فى مقابلتهم ، فلما لقيهم امتهنهم ، ثم ألقى اليهم أمره بجمع هذه الضرائب . وابقاء خمسة عشر عالما منهم رهينة حتى يتم جمعها ، ثم تركهم كليبر ، بعد أن ألقى أمره هذا مبهوتين ، خائفين من بطشه .. حتى خرج بعضهم حافيا

وأراد كثيرون من أهل القاهرة أن يهاجروا منها ،فرارا من ظلم الفرنسيين . تاركين بيوتهم ، وأهليهم . فأرغمهم الفرنسيون على العودة

وهدموا أحياء الحسينية ، وباب الفتوح ، وباب النصر . ولم يمكنوا أصحابها من نقل متاعهم ، وأنقاض بيوتهم ، بل أخذوه كله ، ولم يحتسب لهم من الغرامة

وقد بلغ الامر بأهل القاهرة حدا وصفه الجبرتى بقوله :

« ... فدهى الناس بهذه النازلة ، التى لم يصابوا بمثلها ، ولا ما يقاربها . ومضى عيد النحر ولم يلتفت اليه احد . بل ولم يشعروا به . ونزل بهم من البلاء ، والذل ، ما لا يوصف » . ثم بقوله : انه « قد ضاق خناق الناس ، وتمنوا الموت فلم يجدوه »

وبلغ الامر بأهل مصر كلهم ، ما وصفه أمين باشا اذ يقول : « ان حوادث هذه الفترة تدل على مبلغ ما وصلت اليه أيديهم ـ أى الفرنسيين ـ من نهب وسلب وأسر وقتل ، وتدمير وتخريب ، ومذلة وفناء ـ للمصريين ـ وبلاء مستطير ، وضروب العذاب الاليم : يذبحون ابناء الناس ، ويستحيون نساءهم »



انتقام الشعب

كان لابد لهذا الظلم ، وهذا الجبروت ، وهذه القسوة على شعب مصر ، أن تملأ قلوب أبنائه بالنقمة والسخط والغضب ، وأن تدفعه الى الانتقام . فقام واحد من أبناء الشعب - هو سليمان الحلبى - بالتنفيس عن هذا السخط المكظوم ، الذى فاض به شعور الناس ، بسبب هزيمتهم أمام الفرنسيين فى الحرب ، وبسبب هذه القسوة الشاذة المنكرة ، التى أخذها بهم كليبر

وكان التنفيس عن غضب الشعب وسخطه المكظوم ، بقتل كليبر نفسه

وقد يقول قائل ان سليمان الحلبى لم يكن مصريا . ولكنا نجيب بأن وجدان الناس فى ذلك الوقت لم يكن وجدانا وطنيا ، بل دينيا . ولم يكونوا يعرفون حدود الوطن ، بل كانوا يعرفون احساس الايمان والعقيدة

ربما كانوا يحسون بالقومية احساسا مبهما آنئذ . ولكن احساسهم القوى الغالب المسيطر ، كانت دوافعه هى دوافع الدين والعقيدة التى هى أشمل وأعم وأوسع من حدود الوطن

وقد كان سليمان الحلبى من بلاد الشام . ولكنه عرف ما أصاب أهل مصر من جور الفرنسيين وظلمهم وجبروتهم فتحركت فى نفسه عوامل قوية من الغضب والغيظ لما أصاب عشيرته الدينية ، أو العربية ، من محنة . فلما قدم القاهرة لشفاء ما فى نفسه من هذا الغيظ والغضب . استقر فى الازهر ثلاثين يوما . والازهر مركز المقاومة وجحر الثورة . فتأثرت نفسه ، فوق تأثرها ، بهذه البيئة الثورية . وسمع من صغار العلماء ، والمجاورين ، ما أصاب الناس من شقاء . وما أصاب الازهر من تهدم ، واعتداء على حرماته وكرامة أهله . فزاد اصراره على الانتقام والثأر ، وتفاعلت فى نفسه أكثر من ذى قبل ، عوامل الغيظ والغضب

على أن سليمان الحلبى عرف مصر والازهر من قبل ، وتأثرت بعواطفهما نفسه . حيث طلب العلم فى الازهر قبل ذلك ثلاث سنين . ثم عاد الى الشام

وقد يقول قائل : ان الذين حرضوا سليمان الحلبى على قتل كليبر هم الاتراك ، كما ثبت من اعترافه فى التحقيق

ولكنا نقول ان سليمان اعترف بأن أحمد أغا ، ويس أغا ، حرضاه على السفر الى مصر ، وقتل كليبر . وأن يس أغا أعطاه أربعين قرشا ... ! نفقات سفره من الشام الى القاهرة . ولكن هذا الاعتراف . كأقوال سليمان كلها ، انتزعت منه بعد ضربه وتعذيبه . وقد اعترف الفرنسيون بذلك . وكأنهم خجلوا من هذا الاسلوب فى المحاكمة ، فقالوا ان هذا التعذيب كان على « عادة البلد » أى أنه أسلوب جرى عليه الناس فى مصر فى ذلك الوقت . ومن مصلحة الفرنسيين أن ينسب اغتيال كليبر لغير المصريين . حتى لا ترتفع روحهم المعنوية ،وتزيد حماستهم فى الحرب

والخصومة ، ويكبر اعتبارهم عند أنفسهم وعند الناس ..

ومع التسليم بأن أحمد أغا ، ويس أغا حرضا سليمان على قتل كليبر ، فان ذلك لم يكن سوى توجيه عاطفة موجودة ، والاستفادة منها ، واستغلالها . وهذه العاطفة ، وطنية ، أو دينية ، أو قومية عربية ، لم تكن موجودة عند أحمد أغا ويس أغا نفسيهما . لانهما كانا من رجال الوالى التركى فى مصر ، ثم فرا الى الشام أمام الفرنسيين . ولم يجدا عند سليمان الحلبى سوى الرغبة القوية فى الانتقام من الفرنسيين ، ولو ضحى بنفسه فى هذا السبيل . فأعطاه ثانيهما أربعين قرشا لنفقات سفره . لانه كان فقيرا معدما ..

فشرف هذا الانتقام ، يتوج رأس سليمان الحلبى ، وهو شرف يجب أن ينسب لمصر ، وللازهر . وقد عرف الفرنسيون أثر الازهر ورجاله خاصة فى اقدام كليبر على فعلته . فخصوه وخصوا علماءه بغضب شديد ، كما نرى بعد ، فسليمان الحلبى كما رأيناه ، يمكن أن يقال فيه انه مصرى العاطفة ، أزهرى الثقافة

مقتل كليبر

كان الجنرال كليبر كثير الحركة . دائم التنقل بين منزله فى الجيزة ، حيث كان يقيم فى ذلك الوقت ، ومعسكر جيشه فى الازبكية . وفى يوم ١٤ من يونيو سنة ١٨٠٠ ذهب كليبر الى جزيرة الروضة ، فتفقد بعض الجند الفرنسى . ثم عاد الى مركز القيادة العامة ، والى منزل القائد فى الازبكية ، فشاهد ، ومعه المسيو بروتان ، أحد مهندسى الحملة ، ما كان يجرى من

الاصلاحات فى المنزل وفى مقر القيادة ـ وكان ما أصابهما بسبب أعمال الثورة وبأيدى رجالها ـ ثم ذهب فى عصر ذلك اليوم مرة ثانية ، ومعه بروتان الى المنـــــزل ومقر القيادة ٠٠

وبينما كان كليبر يتحدث الى رفيقه ، وهما يسيران فى ممر طويل ، اذ تقدم اليه رجل بورقة فى يده ، فتلفت اليه كليبر ليسمع منه ، أو ليأخذ الورقة ٠ فعاجله الرجـــل بطعنة خنجر فى صدره ، ثم اشتبك بالمسيو بروتان ، الذى أسرع ليلحق به ، وطعنه بخنجره ست طعنات ، سقط بعدها الى الارض ، ثم عاد مرة أخرى ليجهز على كليبر بخنجره ٠ وكان قد قتل بالطعنة الاولى ، وقد ظهر فيما بعد أن سليمان تعقب كليبر أياما كثيرة وأنه حاول أكثر من مرة أن يلتقى به ليقتله فلم يستطع ٠ وضبط سليمان بعد ذلك فى حديقة مقر القيادة ٠٠

وفى اليوم الثانى ـ الاحد ١٥ من يونيو ٠٠ أصدرالقائد العام الجديد ، الجنرال منو ، أمره بتشـــــكيل المجلس العسكرى الذى يحاكم القاتل ، ثم عقد هذا المجلس ـ فى اليوم التالى ـ أولى جلساته

أربعة من الشهداء

وتمت المحاكمة ، وشهادة الشهود ، والمرافعة ، من الادعاء والدفاع فى يومين ٠ وأصدر المجلس حكمه بأن تحرق يد سليمان اليمنى ٠ ثم يجلس فوق الخازوق ٠ وتترك جثته حتى يأكلها الطير ٠ وكانت سن سليمان أربعا وعشرين سنة ٠ وأدان المجلس أربعة من الازهريين كان سليمان أفضى اليهم بعزمه على قتل كليبر ، وهم الشيوخ عبد الله الغزى ، وسنه ثلاثون سنة ٠ ومحمد الغزى وسنه خمس

وعشرون • والسيد أحمد الوالى ، وقد ذكر أنه لا يعرف سنه • وعبد القادر الغزى • وقد حوكم غيابيا لانه فر • أدان المجلس هؤلاء الاربعة من الازهريين ، لانهم لم يخبروا السلطات الفرنسية بما سمعوه من سليمان أو عرفوه من تفكيره فى قتل كليبر ، وقد قطعت يد سليمان اليمنى ، ثم اجلس على الخازوق ، فوق تل العقارب بالناصرية وأعدم الازهريون الثلاثة بقطع رءوسهم ، ثم حرقت جثثهم ووضعت رءوسهم على نبابيت ليطاف بها فى شوارع القاهرة وأحيائها • ونفذ حكم الاعدام فى الازهريين الثلاثة قبل اعدام سليمان ، أمام عينيه

ودفن جثمان كليبر فى احتفال عسكرى فى حديقة قصر العينى ، ثم نقله الفرنسيون معهم عند خروجهم من مصر ، الى فرنسا

بعد ذلك زادت ريبة الفرنسيين فى علماء الازهر وطلبته فقد أمضى فيه القاتل ثلاثين يوما • وأفضى لاربعة من طلبته بعزمه على القتل . وكانوا يودون لو استطاعوا ادانة شيخ الأزهر ، الشيخ عبد الله الشرقاوى . ولكنهم على الرغم من الحاحهم على سليمان والثلاثة الازهريين بأن يعترفوا بعلم الشيخ نية القاتل ، أو باتصاله به ، أو بزيارته ، لم يستطيعوا ادانة الشيخ

هذه الريبة فى العلماء والطلبة . وهذا الغضب منهم ، حملا الفرنسيين على أن يصطنعوا معهم البطش والشدة ففتشوا الازهر تفتيشا دقيقا • ونقروا فيه نقرا كثيرة • لعلهم يجدون سلاحا . وأخرجوا بعض الطلبة منه . وأخلوا الاروقة ونقلوا ما فيها من الكتب ، ودونوا أسماء الطلبة الذين لم يخرجوهم وأخذوا عليهم عهدا بالا يدخل

الأزهر غيرهم . وكانت حملة التفتيش على الازهر بقيادة القائد العام الجديد نفسه ، منو ، ومعه حاكم القـاهرة ، الجنرال بليار ، والمحافظ

الازهر يقفل

وعند ذلك رأى العلماء من الخير والحكمة . أن يقفل الازهر حتى لا تكون هذه الريب والشكوك ، ســببا فى اعنات أهله وارهاقهم ، وحتى لا تكون هذه الاحـــوال القلقة ، والظروف الرهيبة التى تسود القــاهرة عامة ، والازهر خاصة ، مسرحا لفتنة جـديدة . فطلب شيخ الازهر ، الشرقاوى ، والشيخان الصاوى والمهدى الى منو أن يأذن باقفال الازهر . فأقفل « وسمروا أبوابـــه من جميع الجهات » كما يقول الجبرتى . وكان ذلك يوم ٢١ يونيو ، أى بعد أسبوع من قتل كليبر ، وبقى الآزهر مقفلا نحو عام حتى خرج الفرنسيون من مصر ففتـــح يوم ٢ يونيو سنة ١٨٠١

انتقام وقســـوة

هذا ما أصاب الازهر ، بعد اغتيال كليبر . أما أهـــل القاهرة ، فقد أمر القائد الجديد الجنرال منو ، بفــرض غرامة جديدة عليهم ، قدرها اربعـــة ملايين فرنك ، ثم مليونا آخر . وأراد كثيرون من أهل المدينة أن يهاجـــروا منها فرارا من الظلم . فمنعهم الفرنسيون ، وأرغموا من خرج منهم على أن يعود ، والا نهبت بيوتهم ، وصودرت أمـــلاكهم واعتبروا مذنبين . وامتنع الجنرال منو من مقابلة المصريين ، حتى العلماء . وكذلك فعل قواده

وأمر منو(١) بأن تقفل جميع المتاجر، والوكايل، والخانات ثم يصفى جميع ما فيها من الاموال والعروض، ويقدر بأبخس الاثمان، ويحتسب من قيمة الضريبة التى فرضها. وهدمت بيوت كثيرة، بل أزيلت أحياء كاملة، كالحسينية والخروبى بمصر القديمة، وبركة الفيل، وبركة جناق، فى باب الشعرية. وهدم سور القاهرة من باب النصر الى باب الحديد. واقتعوا أحجار المساطب التى كان الناس يجلسون عليها أمام حوانيتهم فاتخذها المجاهدون متاريس فى أيام الثورة. وأزالوا هذه المساطب كلها من أحياء الصليبة، وقناطر السباع، ودرب سعادة، والجماميز، وباب الخلق. وأحياء أخرى من القاهرة. وقطعوا الاشجار، والنخيل، من جميع البساتين فى المدينة، وبعض البلاد الاخرى. واستولوا على أخشاب السفن والمراكب

وأمعنوا فى الاساءة الى شعور الناس. فجعلوا مسجد الامير أزبك، فى الازبكية سوقا يباع فيه مايصادر من متاع أهل القاهرة ومتاجرهم. وجعلوا مسجد الرويعى خمارة وهدمت مساجد الجنبلاطية فى باب النصر، وجركس

(١) كان الجنرال منو اشد القواد الفرنسيين قسوة على المصريين .. وكان يكره كليبر حتى انه سمى ابنه من زوجته المصرية «سليمان» على اسم سليمان الحلبى الذى قتل كليبر. ولم يمنعه اظهاره الاسلام وتسمية نفسه باسم عبد الله من اتخاذ كل انواع القسوة مع المصريين ..

وقد اطلعت على وثيقة زواجه من السيدة زبيدة المصرية — كما نقلها الاستاذ على بهجت من سجلات محكمة رشيد الشرعية — وفيها ان صداقها كان مائة دينار، والفى ريال. وانها لم تقبض من مقدم صداقها سوى المائة دينار. وانها كانت زوجا لسليم أغا نعمة الله، ثم طلقت منه. وابوها محمد البواب من رشيد. وكان منو حاكما عليها.

وتجد النهاية التعيسة التى انتهت اليها حياة زبيدة هذه، وعلاقة منو بها فى الجزء الاول من كتابنا «دراسات فى تاريخ الجبرتى، مصر فى القرن الثامن عشر» ص: ١٧٢ — ١٧٣

وخـــوند بركة ، عند باب البرقية ـ الفريب ـ وعثمان كتخدا القردغلى ـ بالقرب من رصيف الخشاب ـ ميدان الاوبرا الان ـ وخير بك ، بالقرب من بركة الفيل . وعبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ، والبنهـــــاوى ، والطرطوشى . والعدوى . وجعلوا المســـــجد الناصرى قلعة : ومسجد الامير سليم كاشف ، فى اسيوط ، سجنا

وهدمت غير هذه من المساجد ، والاحياء

وأمروا أهل القاهرة ، مهما علت مكانتهم ، أن يقفوا تحية لعمـــال الفرنســـيين وموظفيهم عند مرورهم فى الشوارع ..

وامتد عدوان الفرنسيين ، وظلمهم ، الى بلاد الريف فجعلوا تعيين العمد فى القـــرى بأمر من القائد العــــام ليكونوا تحت سلطانهم .وليستخدموهم فى تنفيذأوامرهم وجمع ما يريدون جمعه من المال . ثم فرضوا على البلاد ضرائب ثقيلة . وصف الجبرتى وقعها على الناس بقوله : « فلما شاع ذلك ضجت مشـايخ البلاد . لان منهم من لا يملك عشاءه » ويقول الشـيخ عبد الله الشرقاوى ـ وكان ، فى بعض أموره ، صديقا للفرنسيين ـ « أن كـــل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجـــالها ، وأخـذوا نساءها. وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما (١) »

كل ذلك فعله الفرنسيون بأهل مصر ، فى القـــاهرة والريف ، حتى لايثوروا عليهم مرة أخرى .وحتى يقهروا نفوسهم بالسطوة والجبروت

ولكن هذا العنت والظلم ، وهذه القسوة الباغية .وان تكن أضعفت من قدرة المصريين على المقاومة ،فانهـــا لم

---

(١) ص ٧٦ من كتاب « تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين »

تضعف فى قلوبهم مشاعر الحقد والغضب على الغاصب الظالم المحتل . بل زادتها أشتعالا ، ورسوخا ، وتمكينا. لذلك عندما قدم الانجليز والاتراك ـ بعد ذلك بتسعة شهور ـ لحرب الفرنسيين ، كان هؤلاء يخشون ثورة المصريين عليهم ، أكثر من خشيتهم الحرب . فجمع الجنرال منو اعضاء الديوان الجديد ، الذين اختارهم جميعا من المصريين ، وأنذرهم محذرا من الفتنة . ولكنه لم يرض عن تصرفهم ، ولم يطمئن الى نواياهم ، ولا الى سيطرتهم على الشعب لو أراد الثورة عليه . فأمر باعتقال كبار الشيوخ ، الذين يشك فى اخلاصهم ، وولائهم ، والذين يخشى من أثرهم ، وتحريضهم الشعب على الثورة . وكان أولهم الشيخ السادات . فاخذ الى القلعة سجينا . ثم اعتقلوا بعد ذلك الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ الازهر ، والشيخ محمد المهدى ، والشيخ مصطفى الصاوى ، والشيخ سليمان الفيومى ، ثم الشيخ محمد الأمير . واعتقلوا أيضا كثيرا من وجوه الناس ومن ابناء الشعب . ولم يغفلوا ، مع ذلك ، أن يتملقوا شعور المصريين ، وأن يداهنوهم

وكان موقف أهل القاهرة ، وتحفزهم للثورة على الفرنسيين ، عند اشتباكهم فى حرب الانجليز والعثمانيين من الاسباب التى حملتهم على التسليم من غير قتال ، فى ٢٢ يوليو ١٨٠١ ثم قبولهم الجلاء عن مصر كلها فى خمسين يوما

وقد صرح بهذه الحقيقة ـ الخوف من ثورة أهل القاهرة ـ الجنرال بليار ، الذى خلف منو فى قيادة الجيش ، صرح بذلك فى اجتماع المجلس الحربى الفرنسى ، وكان يرأس المجلس . وكان تصريحه بذلك موحيا برغبته فى التسليم ، الذى اقره المجلس عليه

ولكى نعرف اثر هذه المقاومة الباسلة ، المثابرة ، القوية ، التى قاوم بها شعب مصر كله عدوان الفرنسيين على أرض الوطن . نذكر طرفا من شهادة المؤرخين ، والقواد الفرنسيين فى ذلك . وقد ذكرنا عند حديثنا عن مقاومة أهل المدن والقرى طرفا من هذه الشهادات عن المقامة المحلية . ونحن هنا نذكر طرفا آخر ، يتناول المقاومة العامة ، من الشعب كله ، واثرها فى قدرة الجيش الفرنسى على حكم البلاد ، بل مجرد البقاء فيها . .

فمن ذلك ما يقوله المسيو مارتان ، أحد مهندسى الحملة ، وعضو اللجنة العلمية الفرنسية : « بالرغم من احتلال الفرنسيين لعاصمة مصر ، فانهم لم يستقر لهم قرار فى البلاد . وكان مركزهم فيها مزعزعا ، ومحفوفا بالمتاعب . ولم يترك الاهالى وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية الا اتبعوها . وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية هذه المقاومة (١) »

ثم يقول : « ان دعاة الفتنة مافتئوا يشعلون نار الثورة فى مختلف انحاء القطر المصرى . وقد اتخذ المصريون شعارهم ، ذلك المبدأ المشهور الذى أعلنته فرنسا ، وهو : « ان مقاومة الاضطهاد هى اقدس واجبات الشعب »

ويقول ريبو : « كان الجنود يعملون على اخماد الثورة باطلاق الرصاص على الفلاحين ، وفرض الغرامات على البلاد . ولكن الثورة كانت كحية ذات مائة راس . كلما اخمدها السيف والنار فى ناحية ، ظهرت فى ناحية اخرى

(١) ص ١٦٠ جزء أول من تاريخ الحركة القومية

اقوى واشد مما كانت . فكأنها كانت تعظم ، ويتسع مداها ، كلما ارتحلت من بلد الى آخر »

ويقول الجنرال كليبر بعد ما تولى قيادة الجيش : « ان مصر ، بالرغم من السكون الظاهرى الذى شملها ، لا تعتبر الا مذعنة لحكم القوة ، والشعب المصرى موزع الفكر ، قلق على مصيره . ولا يرى فينا ــ مهما فعلنا ــ الا أعداء ملكه وماله . وقلبه متجه دائما ، الى الأمل فى حدوث الانقلاب الذى يتوقعه (١) »

ويقول مسيو بوسليج ، مدير الشئون المالية للحملة : « ان الشعب المصرى بالرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، يمكن اعتباره شعبا وديعا ، على أنه يكرهنا ، وهيهات أن يحبنا . مع أننا نعامله بأحسن ما يمكن أن تعامل به بلاد محتلة ... انهم يمقتون المماليك ويرهبون نير الآستانة ، ولا يحبون حكمها . ولكنهم لا يطيقون حكمنا . ولا يصبرون عليه ، الا بأمل التخلص منه (٢) »

ويقول نقولا الترك ــ وهو مؤرخ فرنسي ــ ان الجيش الفرنسي فقد منذ دخل مصر الى أن خرج منها ، خمسة عشر ألف جندى . وأن المصريين اغتالوا عددا كبيرا منهم . ثم يقول أن النساء المصريات كن « يأخذن الفرنساوية الى منازلهم الزاما ــ أى قهرا ــ ويقتلونهم ويرمونهم فى الابيار ، ويخفون منهم الآثار (٣) »

وقد قدر الجنرال داماس ، رئيس أركان حرب الجيش الفرنسى ، عدد جنود جيشه فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ : بثلاثة وثلاثين الفا . وقدره فى أغسطس من السنة التالية ، باثنين وعشرين الفا . فكأنه فقد فى سنة

(١ ، ٢) ص ١٢٦ جزء ٢ من تاريخ الحركة القومية
(٣) ص ١١١ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية »

واحدة أحد عشر ألف جندى . مات بعضهم بسبب المرض . وكثير منهم بيد المجاهدين ، وابناء الشعب ..

وقد شهد نقولا فى كتابه هذا ـ الذى وضعه لخدمة الفرنسيين ، وتمجيدهم ـ شهادات مشرفة لوطننا فى هذا الكفاح . فقال : انهم كانوا يخشون ثورة المصريين. اكثر من خشيتهم حرب المماليك ، أو العثمانيين . وقال : « ان المصريين تظاهرت فى العصاوة والأسية ، على الطائفة الفرنساوية . وقامت الاربع اقاليم المصرية ، القبلية ، والبحرية ، والغربية ، والشرقية . وكان فى كل وقت ، يقع الخصام بينهم وبين الجنرالية ، من الاربع الجهات المصرية . وتحرق البلاد ، وتهلك العباد .

ومما يزكى شرف جهادنا ، ما ذكره المسيو مارتان ، اذ يقول : « لقد قام المصريون فى ثورة القاهرة ، بما لم يستطع أحد ان يقوم به من قبل . فقد صنعوا البارود ، وصنعوا القنابل من حديد المساجد ، وأدوات الصناع . وفعلوا ما يصعب تصديقه ، وما راء كمن سمع . ذلك انهم صنعوا المدافع (١) » وقد كان المهندس مارتان شاهد عيان لهذه الثورة

وكذلك ما سجله مسيو ميو ، وكان مرافقا للحملة ، اذ يقول : « طالما ذكرتنى الحرب بموقفنا فى مصر . وهكذا كل حرب أهلية . لان احتلال جيش لبلد ـ لا يريد أهلها الا الحرية ـ يجعل ذلك الجيش معرضا للخطر . فاما محو تلك الامة ، واما ترك البلاد لاهلها (٢) »

هذا بعض ما شهد به الفرنسيون فى مقاومة المصريين لهم . أما شهادتهم فى أثر هذه المقاومة عندهم ، فنحن

---

(١) ص ١٥٦ جـ ثان تاريخ الحركة القومية
(٢) ص ١٦٧ من كتاب « فتح مصر الحديث »

نذكر منها ــ فوق ما تضمنته الشهادات السابقة ــ ما سجله نقولا من أن الحاميات الفرنسية ، فى داخل البلاد خرجت عن طاعة قوادها . فقد سار الجنرال كليبر الى الصالحية ــ وكان المجاهدون المصريون حرقوا حامية العريش على جنودها ــ فوجد الجنود الفرنسيين ، كما يقول نقولا : « قلوبهم منقسمة ، ووجوههم غير مبتسمة . ونفوسهم قلقانة ومن النفور ملآنة . وقلوبهم الى السفر ظمآنة . ومتحسرين من نفور أهل الكنانة (١) » وكذلك علم كليبر ، من حاكم مدينة بلبيس ، أن الجنود الفرنسيين عصوا أمر قائدهم . وقام جنود من حامية الاسكندرية على بعض الضباط المسافرين الى فرنسا ، وكانوا يحملون اموالا ، فمنعوهم من السفر ، وقالوا لهم : « محال أن ندعكم ــ ندعكم ــ تسيرون بهذه الاموال ، ونحن نقاسى الوبال والنكال (٢) »

وكذلك كان من آثار هذه المقاومة أن امتنع جنود حامية العريش عن المقاومة . وسهلوا للحملة التى كان يقودها يوسف باشا ضيا ، دخول القلعة . وكان ذلك فى أثناء مفاوضات الصلح ، فكان مسلك هؤلاء الجند من أكبر الاسباب لقبول الفرنسيين له

وكان من أثر هذه المقاومة ، أن أخرجت نابليون « الحكيم ، الحليم » عن حد الاعتدال ، والسداد . ويبدو ذلك واضحا فى الاجتماع الذى التقى فيه نابليون بالعلماء وأعضاء الديوان وأعيان القاهرة فى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٩ ــ بعد انتصاره على الحملة العثمانية الأولى ــ ذلك الاجتماع الذى يصوره نقولا الترك تصويرا شيقا . حتى ليبدو فيه نابليون العظيم المظفر كأنه ممثل هازل ، وقد

(١ ، ٢) ص ١٢٨ ، ١٢٩ من كتاب « ذكر تملك جمهور الفرنساوية »

ذكر الجبرتي في خبر هذا الاجتماع وحديث نابليون فيه — في حوادث شهر ربيع الاول سنة ١٢١٤ — (١) ولكن تصوير نقولا أصدق في الدلالة على ما نريد

ولولا خشية الاطالة لرسمت هذه الصورة ، فليرجع اليها من يشاء (٢).

ونستطيع ان نقول ، في ختام هذا التلخيص لكفاح مصر في سبيل حريتها ، أن شعبها حقق بالفعل ما قاله الرئيس ولسون ، رئيس الولايات المتحدة أيام الحرب العالمية الاولى ، بعد ذلك باكثر من قرن من الزمان وهو :

« ان شرف الامة أغلى من رفاهيتها . بل اغلى من حياتها »

(١) ص ٨١ ج ٢ طبع المطبعة الشرقية
(٢) ص ١٢١ — ١٢٢ — من كتاب نقولا . وقد نقلها حافظ عوض في ص ٢٩٧ — ٢٩٨ من فتح مصر الحديث



مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث

تتصل دراسة « المجتمع المصرى » أوثق الاتصال بدراسة تاريخنا . وخاصة تاريخنا الحديث . فمن أحداثه الكبار ، ونتائجها ، وتاريخ الرجال الذين واجهوا هذه الاحداث أو واجهتهم • ومن قيم هؤلاء الرجال الحقيقية ، من هذا كله يتكون واقع مجتمعنا المصرى وحاضره ، وبشائر مستقبله . كما يتلون مجتمعنا ، وتتلون أخلاق أهله وطرائق تفكيرهم بلون أو ألوان خاصة ، لاحداث هذا التاريخ ، وفهمها ، أثر كبير فيها ، وفى انسجامها أو تنافرها . واستقامتها ، أو عوجها

وقد كانت دراسة تاريخنا الحديث ، منذ الفتح العثمانى . ومنذ استيلاء محمد على على الحكم خاصة ، خاضعة لمؤثرات غير أمينة وغير منصفة ، وغير مفيدة بل هى ضارة بالغة الضرر • على وجه التأكيد

أما انها غير أمينة ، فلأنها كانت منحازة الى جانب الخصومة مع شعبنا ، وكأنها لا تؤرخ له ، بل تجمع المآخذ والاثام ، والمثالب . فتلصقها بهذا الشعب ، الذى خذل

أمام العثمانيين . ولكنه لم يفرط فى حق وطنه ، وشرفه، بل دافع عنهما أروع دفاع وأكرمه ، كما رأينا أول هـذا الكتاب • وشعوب العالم كلها يتناوب حيـــاتها النصر والهزيمة

واما انها غير منصفة ، فلانها لم تبحث عن العلل الطارئة والعوامل الدخيلة التى انتهت به الى الهـــزيمة أمـام العثمانيين . ثم امام الفرنسيين والانجليز . بل جعـــلوا سبب ذلك دوافع أصيلة فى تكوين الشعب نفسه وادراكه والمقاييس التى يقيس بها أهداف الحياة والكـــرامة والشرف . والحرص على الحرية والعزة . وكان يجب ان نبحث عن هذه وتلك

واما انها ضارة بالغة الضرر . فليس يخفى ذلك على مفكر او متأمل . لانها تهدر فى نفوسنا كل معنى كريم ، وكل احساس بالنخوة الوطنية ، وكل شعور بمجد الماضى وكفاحه . .

ولا يزال كثيرون منا ، ومن رجال التربية خاصـــة ، يذكرون دنلوب وسياسته فى وزارة المعارف . ولـم يكن دنلوب شخصا أكثر مما كان فكرة ومذهبا • الغاية منهما اذابة كل شعور قومي ، وكل معنى من معانى « التربية » الوطنية والفردية والسياسية . ولم يفعل الانجليز ذلك عبثا . بل كان هدفهم منه التمكين لسلطانهم واحتلالهم . كأنهما قدر لا مفر منه ، وان تاريخ مصر كله ، والقيـــم الفردية والجماعية للمصريين . اساسهما ، وقوامهما . الخضوع لحكم الغير ، والرضى به

هذه ناحية ، والناحية الاخرى تسخير التاريخ لخدمة اسرة محمد على . فقد اسرف المؤلفون والمؤرخون فى ذلك. حتى أصبحت العقيدة الراسخة ، واضحى المبدأ المقرر ،

الذى لا يقبل المناقشة . أن محمدا عليا هو « منشىء مصر » و « محيى مجد مصر »

فماذا بقي لشعب مصر ، بعد ذلك ، من هذا التاريخ الحديث ..؟

هذه هى دعوتى : « مقاييس جديدة لدراسة تاريخنا الحديث »

فاذا عدونا هذا التاريخ الحديث الى ما قبله وما بعده من تاريخنا وجدناه لا يعدو تاريخ الملوك والسلاطين والحكام وأهل السيادة . وهو فى تاريخه لهم غير منصف، ولا محايد ولا موثق

أعرف أن هذه دعوة شاقة على المؤرخين والمؤلفين . لان أمامهم بنيانا شامخا يقوم على هذه الاسس الزائفة الضارة من تاريخنا . ولان أمامهم عشرات الكتب التى وضعت وألفت وترجمت على هذا الاساس ، وبهذه المقاييس المنحرفة حتى أصبحت نفوس المؤرخين أنفسهم من طول الملابسة لهذه المقاييس ، ودوام الالفة لهذه الكتب ، كأنهم يؤمنون بصدقها وصوابها وعدالتها . وانه يكاد يكون من المستحيل ، او من العسير الذى يكاد يشبه المستحيل ، أن يبحث هذا التاريخ على اسس تغاير — بل تناقض — هذه المقاييس التى الفناها وعشنا حياتنا كلها فى جوها وبيئتها ، وبين كتبها ومبادئها ومقرراتها

هو أمر عسير حقا ، ولكنه ضرورة لابد منها ليدرك هذا الشعب قيمته . ويعرف مزاياه الاصيلة ونقائصه

وليست دعوتى ان نتملق غرائز الشعب ، ونترضى غروره بألفاظ جوفاء لاتبطن وراءها حقيقة . ولا يساندها سند من الواقع او من التاريخ . بل انى أدعو الى مقاييس جديدة فى بحث تاريخنا الحديث بحثا علميا . يكون رائده

الصدق ، والامانة ، وسلامة الادراك . وحسن البصيرة . ووضع الاحداث والرجال حيثما تضعهاوتضعهم الحقائق ، لا الاوهام والغايات . والا نجعل التاريخ خاضعا لمقاييس تقليدية ، غير مدركة . ولا نجعله خادما للملوك والحاكمين وأهل السيادة . بل نضع الى جانبهم ، المتوسطين وابناء الشعب . الذين كانت لهم صنائع . أو مواقف . تستحق ان يحفظها لهم التاريخ ، وتحمد لهم

ويحسن أن نضرب مثلا يوضح ما نريد . وليكن هـذا المثل السيد عمر مكرم ، فهو ، كما يعرف المثقفون . زعيم من زعماء مصر فى تاريخها الحديث . ويصـــفه كثير من المؤرخين بانه « زعيم مصر الاول » . أو زعيم القوميـة المصرية الاول . وقد كان عمر مكرم زعيـم مصر الاول فترة طويلة من الزمن ، لا شك فى ذلك . ولكنه لم يفد من زعامته تلك ـ الى نهاية المدى ـ الا فى تنصيب محمـد على . واجلاسه على عرش مصر . وقد كان مكرم ، كما كان بقية مناصرى محمد على ، يعتقدون انه سيسير فيهم بالعدل ، كما عاهدهم ، ولكن سياسة عمر مكرم ، بعد ذلك، اتسمت بالمسايرة والملاينة لمحمد على ـ حتى بعد ظهور خبيئته ـ بل نستطيع القول بأنها اتسمت بالضـــعف والتردد ..

ولكن السيد عمر مكرم ، عندما جاء نابليون لغزو مصر، ووقف عند سفح الهرم ، صعد الى القلعة فأنزل البيرق النبوى . وحمله على راس مظاهرة رائعة ، يحرض بهـا الناس على حرب نابليون والدفاع عن القاهرة . فلما دخل نابليون القاهرة ، تركها السيد عمر وفر الى الشام . حتى اذا فتحها نابليون ولقيه فى مدينة من مدنها ، أعاده الى مصر ، فبقى مسالما للفرنسيين

نجد هذا فى سيرة السيد عمر مكرم . ونجد مصريين غيره ، بعضهم أقل منه زعامة ومكانة ومنزلة . وبعضهم دونه فى ذلك بمراحل بعيدة . وبعضهم من عامة الناس وأبناء الشعب . نجد هؤلاء بذلوا اموالهم وأرواحهم فى الحرب أو فى الثورة على نابليون ، او على الاتراك ، أو فى دفع الحملة الانجيزية

وليس فى هذا الذى أقوله عن السيد عمر مكرم تنقيص لشأنه ، أو تضعيف لمنزلته • ولا فى هذا الذى فصلته ـ وأفصله بعد ان شاء الله ـ تضخيم لشأن هؤلاء المجاهدين لانهم من ابناء الشعب . بل هذا وذاك وزن للرجال بميزان العدل والعقل • ووضع لهم حيث تضعهم صفاتهم، وأعمالهم • وقيمهم الحقة • من غير تزيد ولا تحيف ، ولا مغالاة ، ولا خضوع لمقاييس غير مستقيمة . او متابعة لقول قائل أو مروج أو مخدوع

. مقاييس جديدة عادلة مفيدة . من شأنها ان تزن الاحداث بمقدار أثرها فى تقدم الشعب او تخلفه ، أو وقوفه . وفى استقامة حياته أو انحرافها والتوائها . وتزن الرجال بمقدار اعتصامهم بالشرف والخير ، وحرصهم على القيم ، الكريمة للحياة . وقيمة الاعمال التى أدوها ، أو شاركوا فيها لخير وطنهم أو كرامته أو مجده أو رفاهيته • فى أى ناحية من نواحى حياته ونشاطه . لا بمقدارسطوتهم أو نجاحهم أو شهرتهم ••

وتجد مصداق ذلك فى الفصل القادم ، الذى عقدناه لتراجم الزعماء والقادة فى هذه الاحداث . وأبرز مثل نسوقه لهذه المقاييس الجديدة . ما يراه القارىء فى هذه التراجم من حديث حجاج الخضرى ، والحاج مصطفى البشتيلى • وما يجده فيها من حديث السيد عمر مكرم



زعماء وأبطال

الان وقد انتهينا من ذكر ما لقيه الفرنسيون من المقاومة والكفاح والثورات المتلاحقة ، وذكرنا قبل ذلك ، أمثلة ونماذج من كفاح الشعب فى سبيل العدل والكرامة ، ووثوبه مرة بعد مرة ، على الظالمين والمستبدين من حكامه وولاته. نذكر طرفا من سيرة الزعماء والابطال الذين كان لهم أوفى نصيب من شرف هذه المقاومة والكفاح . وبعض ما كان لهم فى ذلك من أثر

ونبدأ بذكر بطل شعبى ، يستحق منا ومن وطنه ، كل اشادة وتقدير

حجاج الخضرى

هذا رجل من عامة الشعب ، من أهل القاهرة ، الذين نسميهم « اولاد البلد » أصله من بلدة « المنوات » بالقرب من القاهرة . ولكنه ــ كما ترى من سيرته بعد ــ عاش حياته بطلا ، ولقى نهاية الابطال

وجدت اسم « حجاج الخضرى » يكثر ذكره فى تاريخ الايام العصيبة من حياة أهل القاهرة ، فى الفترة التى

سبقت اختيار محمد على واليا على مصر ، وهى حقبة امتلأت بالفتن والحروب والدسائس ، وكان شعب مصر فيها قد أثبت وجوده ، وحيويته ، حين كافح نابليون ورجاله كفاح الجبارين . وكان الشعب - فى سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) - قد عزل الوالى الظالم المستبد أحمد باشا خورشيد ، كما عرفنا من قبل ، ولكنه رفض أن يذعن لارادة الشعب ، وقال انى توليت بأمر السلطان ، فلا أعزل بأمر « الفلاحين » . وكان أهل القاهرة كلهم يحملون سلاحهم ، وعصيهم ، يحاربون جند الدولة . ولا تخيفهم مدافع خورشيد باشا ، التى كان يرميهم بقنابلها من اعلى القلعة ، حيث كان يعتصم . وقد رأينا تفصيل ذلك فى مكان آخر

وكان حجاج الخضرى شيخا لطائفة الخضرية بالقاهرة، يقيم فى حى الرميلة « الرفاعى » فجمع من أهل هذه المنطقة عصبة قوية كانت تأتمر بأمره . وتخضع لتوجيهات الزعيم السيد عمر مكرم . وأخذ حجاج وعصابته يفتكون بجند العثمانيين . ويدفعون عن أهل منطقتهم عدوان خورشيد ورجاله . وكان حجاج رجلا ضخم الجثة مشهورا بالشجاعة والقوة . عرف يوما ان جند خورشيد خرجوا على فريق من المصريين كانوا خلف أحد المتاريس فى حى المظفر ، فتغلبوا عليهم، فذهب لنجدتهم وقتل من الجند عدداً ، وشتت باقيهم . وكان حجاج ، الى شجاعته ، كريم الخلق عظيم الهمة ، له صولة عظيمة بين مواطنيه ، ومحبة كبيرة فى قلوبهم

وأراد خورشيد بالاتفاق مع على باشا السلحدار ، أن يخدع رجال الثورة . فارسل السلحدار رجلين من رجاله الى السيد عمر مكرم يدعوه للصلح . وطلب اليه ان يأمر أهل القاهرة ، بالكف عن القتال حتى ينتهى الصلح ، وحتى

يسير المفاوضون فى امان . وجاء الى السيد عمر ـ بعد الفجر ـ من يبلغه انها خدعة ، وأن على باشا وخورشيد باشا سيطبقان على الثائرين ، فى وقت واحد ، عندما يأمرهم بترك القتال . فأرسل عمر مكرم الى زعماء الثورة يحذرهم، ويدعوهم الى اليقظة ومداومة الحذر والترقب . وكان حجاج ورجاله يرقبون الجبل من ناحية القلعة فرأوا رجالا كثيرين من الجند وغيرهم ، يقتربون ليصعدوا اليها . ومعهم قافلة من الجمال . فقطعوا عليهم طريقهم وحاربوهم حتى اخذوا منهم القافلة ، وكانت ستين جملا تحمل الذخيرة . وقتلوا بعض الجند وأسروا بعضهم . ثم أخذوا الاسرى ورءوس القتلى الى بيت السيد عمر مكرم ..

وقد اختار محمد على طائفة من جنده وضمهم الى فرقة حجاج من المتطوعين ، وجعل حجاجا قائدا لهم . لما ظهر من شجاعته ويقظته ، وحسن تدبيره

ولما جاء فرمان السلطان لاقامة محمد على واليا على مصر ، تحقيقا لرغبة الشعب اذ ذاك . كان حجاج الخضرى على رأس المتطوعين من المصريين . وهم يلاقون سفير الدولة الذى يحمل أمر السلطان ، ويدخلون معه القاهرة دخول الفاتحين . وقنابل المدافع تتساقط عليهم من القلعة بأمر خورشيد ايضا . وبقى هذا الركب سائرا يتقدمه حجاج ، وبيده سيف مسلول ، والى جواره زعيم آخر كان شيخ الجزارين اسمه ابن شمعة ، حتى دخل السفير بيت محمد على بالازبكية فتلا عليهم الفرمان

وبقى بعد ذلك كثير من جند خورشيد باشا يحاربون. فلم يضع حجاج سيفه حتى أفناهم أو شتتهم . ثم رأى من مستلزمات الحرب ان يقيم حائطا ، وبوابة على الرميلة فأقامهما . وقد ذكر على باشا مبارك فى خططه ، أن هذه

البوابة بقيت تعرف باسم بوابة حجاج زمنا طويلا . وكان الى جوارها قسم بوليس السيدة عائشة . فكان يسمى (قراقول بوابة حجاج) . وكانت تعرف أيضا ببوابه الخلاء

وبعد ان حقق شعب مصر لنفسه النصر على خورشيد. تضاءل اسم حجاج الخضرى ، ثم اختفى شخصه ، لانه لم يرض عن سياسة محمد على بعد ذلك . ولم يجد فيه الحاكم الذى اختاره الشعب وحارب هذه الحرب العنيفة ليوليه عرش مصر . ويقول بعض المؤرخين ان حجاجا انحاز الى جانب الالفى ، كبير المماليك اذ ذاك ، وألد خصوم محمد على . فلما مات الالفى ، وأباد محمد على بقية المماليك فى مذبحة القلعة ، أراد حجاج أن يعود الى القاهرة . فتحدث السيد عمر مكرم فى ذلك الى محمد على . وارسل له اذنا بالعودة ، وامانا . ولما عاد الى القاهرة قابله وأكرمه ، وخلع عليه خلعة . ثم أمر فنودى فى القاهرة بأن حجاجا عاد الى عمله ووجاهته ورياسته على طائفته . وصار يمشى فى المدينة ومعه جندى يلازمه. وكان هذا كله خداعا من محمد على واستدراجا لحجاج حتى يوقعه فى احابيله . فأن محمدا عليا لم يرع عهده ، ولم يحفظ أمانه . بل أرسل المحتسب مصطفى كاشف فأخذ حجاجا وشنقه على السبيل الذى كان يجاور حارة المبيضة بالجمالية . وكان ذلك وقت السحور من ليلة اليوم السابع عشر من رمضان سنة ١٢٣٢ (أغسطس ١٨١٧) . وبقيت جثة هذا البطل معلقة الى سحور الليلة التالية . ثم اذن محمد على فى رفعها ، فأخذها اهله ودفنوها . ولم يكن لهذا الغدر الذى اقدم عليه محمد على ، اى سبب الا شفاء مافى نفسه من حقد على حجاج ، نصيره العظيم ، وليخيف به غيره

وقد بذلت جهدا غير قليل لاجمع من سيرة حجاج

وبطولته اكثر من هذا القدر المقتصد فلم أستطع . ولوان تاريخنا كان يكتب باحساس وطنى ، أو حتى بعاطفة من الانصاف والتجرد ، لسطرت صحائف وكتب فى سيرة حجاج هذا . ونسجت من وحى سيرته الاشعار والاناشيد والقصص والمسرحيات

ولو أن الوعى القومى كان مدركا ، حريصـــــا على ان يحتفظ ، فى ضمير الامة ، بسير هؤلاء الابطال . ماضاعت سيرهم وذكراهم وبطولاتهم . وللقنها الآباء للابنـــــاء والاحفـــاد

أبطال معركة رشيد

كانت معركة رشيد ، بين الانجليز الغزاة ،وبين الابطال من اهل هذه المدينة الباسلة ، وغيرهم من الوطنيين ، من المعارك التى يزكو بها الشرف المصرى . وقـــد رأينـــا تفصيل ذلك من قبل

وكان اول أبطال هذه المعركة ، السيد حسن كريت . نقيب الاشراف فيها ، وكبير اعيانها . فهـــو الذى تولى الزعامة الشعبية فى تلك المحنة التى تعرضت لها رشيد. فترك لقائد حاميتها على بك السلانكلى ــ وكان رجـــلا شريف العاطفة مخلصا ــ قيادة الجند المنظم . وقاد هو جند الشعب ، من المتطوعين لحرب الانجليز ، والمدافعين عن مدينتهم . وبادر فأرسل كتابا الى السيد عمر مكرم فى القاهرة ، يستنجده . ويطلب اليه المبادرة بارســـال السلاح والمتطوعين . ولكنه ــ الى أن جاءه العون من القاهرة ــ كافح بجنده من أهل رشيد ، ومن جاء لعونهم كفاحا قويا ، مشرفا . وتدل على مبلغ ما لقيـــه السيد حسن كريت وجنوده فى هذا الكفاح الرسالة التى بعث

بها ، مرة اخرى ، الى السيد عمر مكرم ، والتى يقول فيها ان الانجليز يحيطون برشيد من كل جانب. يضربون بيوتها بالقنابل ، وقد تهدم كثير منها وقتل من الناس كثير . ثم يقول : ـ « فالله الله فى الاسعاف . فقد ضاق الخناق . وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه. وملازمة المرابطة . والسهر على المتاريس» . هذه الرسالة التى توشك ان تكون استغاثة ، تدل على مبلغ مالقى هذا المجاهد ومن معه ، من المحنة فى هذا الحصار الذى استمر اثنى عشر يوما . ثم انتصر بعد ذلك أهل رشيد . وأبيد الانجليز ، أو أسروا جميعا

وكان لشجاعة حسن كريت ، وصبره ، وايمانه أثر كبير فى هذا الانتصار

وكانت للسيد حسن كريت مواقف اخرى كريمة ، للدفاع عن كرامة ابناء الوطن ، وحقوقهم وحرماتهم ، بعد انتصاره على الانجليز . ذلك ان الحكام الاتراك عادوا الى رشيد ، والحماد ، وما جاورهما فاستباحوا أهلها ، ونساءها ، وأموالها . وزعموا أنها صارت مفتوحة لهم بالحرب ، بعد هزيمة الانجليز . وارسل الناس يستفتون العلماء فى القاهرة . ولكن الاتراك أحاطوا برشيد. وطالبوا أهلها بالضرائب الشاقة . ونهبوا ما فيها من الارز . فبرز لهم السيد حسن كريت ، واغلظ لهم القول وهددهم بأن يترك مع مواطنيه من اهل رشيد ، بلادهم لهؤلاء الظلمة. وقال اننا نحن الذين دافعنا عنها . وحاربنا الانجليز ، لننصركم . ولقينا فى سبيل ذلك من الشقاء والمحنة مالقينا . ثم ارسل كتابا الى محمد على يشكو اليه مايفعله رجاله بالناس . فارسل محمد على اليهم ان يكفوا .

وكان من أبطال معركة رشيد أيضا ، أخوان لم يحفظ

لنا التاريخ من امرهما شيئا كثيرا . ولكنه سجل لهما، فى معركة رشيد هذه موقفا كريما . فقد بذلا ، من جهدهما ومالهما ، ما يشرف ذكرهما ويسجل اسميهما فى عداد الابطال من تاريخ هذا الوطن

هذان الاخوان هما أحمد وسلامة النجارى . كانا من تجار مكة ، يقيمان فى القاهرة . فلما دعا الداعى ، ونفر الناس للحرب ، سافرا الى رشيد . ومن حولهما مئة من البدو ، والمغاربة . وكانا ينفقان على هؤلاء المئة من الجنود . ويحرضانهم على القتال ويقدمان المعونة لغيرهم من المدافعين . ويشتركان بنفسيهما فى المعارك . وبعد هزيمة الانجليز ، فرق هذا الاخوان ما غنما ، وما بقى معهما من مال ، على من خرج يلاحق الانجليز ، وهم يهربون

وبعد ان أبلى هذا الاخوان الكريمان هذا البلاءالعظيم، وبذلا هذا البذل النبيل ، عادا الى القاهرة ، فلقيهما أهلها أكرم لقاء ، ولقيهما محمد على فشكرهما أعظم الشكر

السيد محمد كريم

كان السيد محمد كريم من غمارالشعب . نشأ «قبانيا» يزن البضائع فى حانوت صغير بالاسكندرية . وكان ذكيا، خفيف الحركة ، لطيف المعشر . فظل يعمل ، ويتقدم حتى أتصل بمراد بك . فاختاره حاكما للاسكندرية ، ومدير الجمرك بها ، واصبح فيها السيد المطلق السلطان. وجاءت الحملة الانجليزية الاولى لمطاردة نابليون ، سنة ١٧٨٩ وهو حاكم الاسكندرية . قد رأينا ، عند الكلام عن هذه الحملة ، انه منعها من النزول الى الميناء . ولم يأذن لها بشراء ما تحتاجه من الزاد والماء . وقال لرجال

نلسون : « ان مصر بلاد السلطان ، وليس للفرنسيين أو غيرهم شيء فيها . فاذهبوا أنتم عنا » . ثم قال : ــ « اذا جاء الفرنسيون فنحن كفء لحربهم وصدهم عن بلادنا (١) »

ثم جاءت بعد ذلك بعشرة أيام حملة نابليون ، فأرسل الى مراد بك رسالة يستنجد فيها قائلا : « ان العمارة التى حضرت ــ يقصد اسطول نابليون ــ مراكب عديدة ما لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف ، لله ورسوله . أدركونا بالرجال »

ولم يرسل مراد ما طلب اليه السيد كريم ، فوقف مع اهل الاسكندرية العزل ذلك الموقف المشرف الذى اسلفنا ذكره . وكان نابليون يراسله فى امر التسليم . فلم يجد من ذلك بدا . وذهب بعد تفكير ، حيث سلم نفسه اليه

وقد لقى نابليون السيد محمد كريم لقاء كريما ، وقال له : انى أخذتك وانت تحمل سلاحك فى وجهى ، ولى أن اجعلك اسيرا ، ولكنك ابديت من الشجاعة ما يحملنى على احترامك وتقديرك ، لذلك اعيد اليك سلاحك ، وابقيك حاكما على الاسكندرية كما كنت ، وارجو أن تبدى من الاخلاص للجمهورية الفرنسية ، مثلما أبديت لحكومة المماليك الفاسدة الظالمة

وقد سجل احد رجال نابليون ، وهو فيفيان دينون ، هذا اللقاء بين القائد والمجاهد ، فقال : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل ، السيد كريم الذكاء والدهاء . وكأنما كان يكتم عواطفه عنا » وقد ظهر فيما بعد ان كريما

---

(١) ص ٩٤ من كتاب « تاريخ مصر من الفتح العثمانى » للاستاذين عمر السكندري وسليم حسن » ومراجعة الميجر ا ٠ ج ــ سفدج

عندما استسلم للقوة ، وقبل ان يعمل تحت سيادة نابليون ، قد اعتزم فى نفسه امرا

ظهر ذلك فى تلك المقاومة السرية التى لقيتها جنود نابليون فى الاسكندرية والبحيرة . وفى تنظيم هذه المقاومة ، واحكام تدبيرها . وما عرف بعد ذلك من اتصال المجاهدين بالسيد كريم . وزاد على ذلك ان كليبر فرض على أهل الاسكندرية « سلفة » مالية ، قدرها مائة وخمسون الف فرنك ، (ستة الاف جنيه) فعارض كريم فيها ، وتباطأ فى الموافقة عليها ، ثم تراخى فى جمعها ؛ وكانت هذه الالاف الستة من الجنيهات ضريبة ثقيلة على أهل الاسكندرية ، اذ كان سكانها كما احصاهم الفرنسيون ، ثمانية آلاف

وبدأت الشكوك تساور كليبر نحو السيد كريم ، فألقى القبض عليه يوم ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ ثم نقله الى احدى سفن الاسطول فى أبى قير ، ليضعف من قوة المقاومة التى كان يذكيها وجوده فى الاسكندرية ، ومع ذلك فقد عامله القواد جميعا بالاحترام والتقدير ، وأباحوا ان تؤدى له التحية العسكرية

ولما أبلغت الى نابليون ، فى القاهرة ، انباء هذه المقاومة ، التى كان بطلها السيد محمد كريم ، كتب يقول عن كريم ، انه قد تحقق من خيانته ، من مراسلات له وجدت فى قصر مراد بك ، ثم امر بأن يكبل بالحديد وأن يسجن أتباعه وحاشيته ، وأن يعتقل كل من بقى فى بيته ، وأن يختم على داره وامواله . وفرض عليه ضريبة مقدارها ثلاثمائة الف فرنك

وقد كان لابعاد السيد كريم أثره فى مقاومة أهل الاسكندرية ، وكتب كليبر الى نابليون يقول ان السكينة

تسود الاسكندرية ، بعد اعتقال السيد محمد كريم

ونقل البطل محمدكريم الى رشيد ، ولكن الحماسة التى أثارها قدومه بين اهلهـا جعلت القائد يبادر بارســـاله الى القاهرة ، فبلغها يوم ١٢ من اغسطس ، وارسل الى السجن رهن التحقيق . وتولى الجنرال ديبوى ، حاكم القاهرة ، محاكمته على تلك الرسائل التى دعا فيهامرادا للحضور الى الاسكندرية . وتعهده بأن يسلمها اليـــه ، وتهوينه من شأن الفرنسيين وتشجيعه على حربهم ، ثم على رسائل اخرى أرسلها الى عرب البحيرة ، يحرضهم فيها على المقاومة

واعترف السيد البطل بكل ذلك ، فحكم عليه نابليون بالاعدام رميـــا بالرصاص ، ومصـــادرة أملاكه ، وامواله ، ثم سمح له بأن يفتدى نفسه بثلاثين الف ريال ، يدفعها فى يوم وليلة

وتلقى البطل حكم الاعدام بشجاعة نادرة ، ورفض ان يفتدى نفســه ، وقد قال له فانتور ، كبير تراجمـــة الحملة الفرنسية : ـ «انك رجل غنى ، فلماذا لاتفتـدى نفسك بهذا المال ؟ » فأجابه : اذا كان مقدرا على أن أموت ، فلن يعصمنى من الموت أن أدفعه ، واذا كان مقـدرا لى الحياة ، فعلام ادفعه .. ؟ » وظل على عناده حتى أعدم بالرصاص فى ميدان الرميلة « الرفاعى الان » يـــوم ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ (١) »

وعندما فتحت خزانته ، وبيوته ، وجد فقـــيرا ، لا يملك شيئا

وقد ذكر نقولا الترك ان علماء القاهرة وأعيانها تشفعوا

(١) يحدد الجبرتى فى مظهر التقديس تاريخ قتله بيوم ١٥ من ربيع الاول سنة ١٢١٣ هو يسبق هذا التاريخ بنحو أسبوع

فيه ، وعرضوا أن يفتدوه بخمسين كيسا « ما يقرب من الفين وخمسمائة جنيه » فلم يقبل نابليون ، ثم قال : ان السيد كريم ، والجند تسير به الى ساحة الاعدام ، كان ينادى فى الناس ، محرضا لهم ، ومشجعا «ياأمةمحمد . . اليوم بى ، وغدا بكم » . « وحين قتل كان حزن عظيم عند المصريين ، وزاد نفورهم وحقدهم ، على الفرنسيين »

اما الجبرتى ، فيصف مقتله بقوله : ان الفرنسيين « اركبوه حمارا ، واحتاط به عدة من العسكر ، بأيديهم السيوف المسلولة ، ويتقدمهم طبل يضربون عليه ، ويشقون به الصليبة الى ان ذهبوا به الىالرميلة،وكتفوه، وربطوه ، وضربوا عليه بالبنادق كعادتهم فيمن يقتلونهم، ثم قطعوا راسه ورفعوها على نبوت ، وطافوا بها بجهات الرميلة ، والمنادى يقول : « هذا جزاء من يخالف الفرنسيس »

ثم ان اتباعه اخذوا رأسه ودفنوها مع جثته

وهكذا كانت نهاية بطل الاسكندرية ، السيد محمد كريم

الشيخ حسن طوبار

كان الشيخ حسن طوبار ، زعيما على اقليم المنزلة ، وشيخا لبلدتها . وهو اقليم لقى الفرنسيون فيه مقاومة من أشد واعنف ما لقوا فى مصر ، كما رأينا من قبل . وكان محور هذه المقاومة ، ومدبرها ، هو حسن طوبار

وكان طوبار واسع الثروة ، واسع الجاه والنفوذ . محبوبا غاية الحب ، من سكان هذه المنطقة،وهم يشتغلون بالصيد فى البحيرة . وكان لهم أسطول يزيد على ستمائة

مركب . وبعض المصادر الفرنسية يقدره بألف . ويزيد نقولا الترك هذا العدد فيجعله « ينوف على خمسة آلاف » وهذا الاسطول كله ، ومن فيه من الرجال الاقوياء، كان فى طاعة حسن طوبار ، وفى خدمة أغراضه الوطنية لحرب الفرنسيين

وزاد فى مكانة الشيخ حسن طوبار تلك الثروة الطائلة التى كان يمتلكها . وكانت تقدر بملايين الفرنكات . ومناطق واسعة من الاراضى الزراعية ، ومصانع لنسج القطن، ومصانع اخرى ، ومتاجر . وكان الى ذلك ينتسب الى أسرة عريقة . تداول أفرادها مشيخة المنزلة مئات السنين ، ولهم عصبية وافرة ونفوذ قوى. ويذكر الجنرال لوجييه : انهم فى جميع الجهات التى مروا بها ، من المنصورة الى المنزلة ، لم يسمعوا من الاهالى سوى الثناء على طوبار . وعندما عين الجنرال فيال حاكما على دمياط ، أرسل الى حسن طوبار فأهدى اليه سيفا مذهبا ، وابقاه فى منصبه . ولكنه لم يرتض الجاه والنعيم والثروة ، فى ظل العبودية، فبدأ ينظم المقاومة التى اقلقت راحة نابليون وقواده . وكان يذهب بنفسه الى البلاد والقرى ، يحرض أهلها على الحرب ، ويطمئن على وسائلها لديهم . وجهز من أمواله الخاصة الاسطول البحرى من القوارب التى حاربت الفرنسيين فى البحيرة، وهاجمتهم فى دمياط ، واوشكت ان تخرجهم منها

وكان الفرنسيون يرغبون اشد الرغبة فى أسر هذا الزعيم ، ولكنهم لم يستطيعوا . لمكانته عند قومه، وشدة حرصه . فأرادوا ان يستميلوه اليهم . وارسل اليه الجنرال فيال ليلتقى به . فرفض . وقال : ان احراق الفرنسيين لبلدة الجمالية اساء الى شخصه .. لان هذه البلدة ، وجميع بلاد المنطقة ، تعتبر نفسها فى حمايته .

وانه لا يستطيع ـ وقد فعل الفرنسيون بالناس مافعلوا ـ ان يجتمع بقائدهم . وارسل نابليون اليه بعض الهدايا من القاهرة ، فأبى قبولها . وكان امتناعه عن ملاقاة الجنرال فيال ، حذرا منه وحيطة . وارسل له الجنرال داماس ايضا ليجتمع به . فرفض . واظهر استعداده لان يدفع الضرائب للفرنسيين . ولكنه كان بذلك يخدع داماس . ويستر ما كان يدبره سرا ، من تجهيز حملة بحرية للهجوم على دمياط

وبعث اليه الجنرال دوجا يدعوه للصلح . وكأنه فى هذه المرة لم يكن محتاجا للمخادعة . فأجابه بأنه لايريد ان يرى احدا من الفرنسيين

ووجد نابليون انه لابد من اخضاع هذاالزعيم بالحرب . وانه لن يكون له سلطان على بلاد هذه المنطقة . ولن تنتهى مقاومة اهلها وثوراتهم على جنوده الا بالقضاء عليه . فأمر بتجريد حملتين كبيرتين احداهما بحرية ، بقيادة الجنرال اندريوس ، والاخرى برية بقيادة داماس ، وجعل الجنرال دوجا قائدا عاما لهما

واستطاعت هذه الحملة القوية ان تخضع الزعيم الثائر . وان تدخل المنزلة فى ٦ اكتوبر سنة ١٧٩٨ . ولما رأى الفرنسيون منازل حسن طوبار ، راعهم جمالها ، واتساعها . ولكنها كانت خالية من سكانها ، فقد استطاع طوبار ان يفر الى الشام . وكذلك كانت المدينة خالية ، الا من النساء ، والصبيان ، والعجزة

واراد القائد الفرنسى ان يدخل بيوت حسن طوبار ، ولكنه لاحظ المكانة الممتازة التى يحفظها الناس له ولبيوته فتركها ، واتخذ قيادته فى مكان آخر ، خشية ان يغضبوا لحرمة زعيمهم ومنازله

هاجر حسن طوبار الى غزة ، وبدأ ينظم فيهـــا أمر المقاومة من جديد • وعلم الفرنسيون فى مصر أنه جهز فريقا من المجاهدين ، واعد خمسين سفينه لحملهم منها الى دمياط ، ليهاجم فيها • فأخذوا لذلك أهبتهم • ولكن هذه الحملة لم تتم ، لاستحالة نجاحها • وعاد بعد ذلك حسن طوبار الى مصر باذن من نابليون • ولعله أذن له ليأمن هجومه على دمياط أو غيرها ، وتحريضه أهل بلاده على تجديد الثورة • ولم يأذن نابليون لهذا الزعيم فى أن يدخل مصر ، الا بشرط أن يبقى ابنه رهينة عنـــده فى القاهرة وأن يقيم هو فى دمياط

وعاش طوبار فى دمياط فترة قصيرة ، وكان الجنرال كليبر ، بعد أن تولى القيادة العامة ، يوصى قائده فيها بأن يحذره ، ويتشدد فى مراقبته • ومات فى ٢٩ من نوفمبر سنة ١٨٠٠ •

وقد شهد له نقولا الترك ، هذه الشهادة المشرفة حيث يقول : « أشتهر هـــذا الشيخ المذكور ، فى خبث النية ، ضد الفرنساوية (١) »

ومما يدل على المنزلة الرفيعة التى كان يتمتع بها طوبار فى نفوس الناس ، ويدل فى الوقت نفسه على شجاعتهم ووطنيتهم ، أن الفرنسيين عندما تغلبوا على مقاومته ، وجاء وفد من رجاله يطلب الصلح • تحدث الفرنسيون اليهم فى أمر زعيمهم فأثنوا عليه اعظم الثناء

محمد المهدى او الامير محمد

يسميه المؤرخون محمد المهدى • ويذكره الجبرتى تارة بهذا الاسم ، وتارة بلقب « الكيلانى » كما يلقبه نقـولا

(١) ص ٥٥ من « ذكر تملك جمهور الفرنساوية »

« بالجيلانى » والاسماء الثلاثة لشخص واحد · ولقب « الكيلانى » أو « الجيلانى » من الالقاب الشائعة فى بلاد المغرب حيث قدم محمد المهدى

كان هذا المجاهد من مدينة « درنة » فى طـــرابلس الغرب . عرف بالصلاح والتقوى ، حتى وثق فيه كثير من الناس وتبعوه · وامتاز بفصاحة اللسان ، والجرأة والغيرة الدينية · فلما وصلت أنباء الغزو الفرنسى لمصر الى بلاد المغرب ، خرج محمد المهدى قاصدا اليها لينصر أهلها ، ويحارب معهم الفرنسيين . فلما وصل الى واحة سيوة ، التقى فيها بقافلة من الحجاج المغاربة ، فاستولى على قلوبهم بفصاحته ، وقوة شخصيته حتى تبعوه ، وجعل منهـــم جيشه الذى نزل به الى دمنهور ، وحارب فيها الفرنسيين فأبادهم أول الامر . وكانت هذه القافلة أربعمـــائة من الرجال الاشـــداء

وقد زعم الفرنسيون ، ويوافقهم الجبرتى ، أن المهدى قتل فى حربه مع الجنرال لانوس · ولكن أحد رجـــال الحملة الانجليزية التى قدمت مصر بعد ذلك بالاشتراك مع العثمانيين ، لحرب الفرنسيين · وهو الكولونيـــل « روبرت توماس ولسون » يقول انه لم يقتل ، وانـــه اجتمع بالحملة الانجليزية عند الرحمانية وسار معها حتى بلغ القاهرة (١) ووصف الكولونيل ولسون هذا المجاهد بانه لم يكن شخصا عاديا ، بل كان اميرا من أمراء المغرب ، اسمه مولاى محمد · وانه اجتمع به فوجده رجلا مهيب الطلعة ، نبيل النفس ، أنيق الثياب · وكان يركب جوادا عربيا من اجمل الجياد ، ويضع على رأسه عمامة ناصعة البياض ، ويلبس عباءة فى نصاعة بياضها أيضا · موشاة

---

(١) ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧ فتح مصر الحديث

بالذهب . تتدلى منها على كتفيه عقود من الحرير الاحمر

ويؤيد رواية هذا الكولونيل ، فى أن المهدى لم يقتله الفرنسيون ، ما ذكره الجبرتى بعد ذلك فى تسـجيله لثورة القاهرة الثانية من انه اشترك فيها • ويؤيد الرواية فى شقها الثانى ، وهو مكانة الرجل وامتيازه • ما ذكره نقولا عند حديثه عن ثورة البحيرة حيث وصف زعيمها هـذا بأنه من « الاشراف » . أما ما ذكره الجبرتى أولا من قتل المهدى . فلعله سمعه من الفرنسيين

وقد ذكرنا بلاء هذا المجاهد ، فى حديثنا عن ثـورة مديرية البحيرة

الشيخ السادات

كان الشيخ السادات ، من أكبر الشـيوخ مقاما ، واعظمهم شأنا ، واوسعهم جاها وثروة ، واعزهم منزلة لدى الناس ، ولدى الامراء على السواء ، ولكنه مع اختيار نابليون له عضوا فى الديوان ، وزيارته له فى بيته ، كان من اكبر خصوم الفرنسيين ، والمحرضين على الثـورة عليهم ..

فعندما قامت ثورة القاهرة الاولى تبين ان زعيمهـا الاول هو الشيخ السادات

وثبت لديهم ذلك حتى أمر الجنرال كليبر باعدامه ، ولكن نابليون رده عن ذلك مع يقينه من زعامته للثورة ، وقال : ان قتل شيخ فى مكانة السادات يضر ابلغ الضرر بمركز الفرنسيين ، ويزيد فى حقد المصريين وكراهيتهم له

ثم قامت ثورة القاهرة الثانية على الجنرال كليبر • وكان السادات من المحرضين عليها. فجاءت فرصة كليبر

لشفاء ما فى نفسه من السادات • وكان يذكر نصيحة نابليون فلم يقتله • ولكنه أوقع به من العذاب والمهانة شيئا كثيرا • حيث فرض عليه ضريبة فادحة ، قدرها مائة وخمسون الف فرنك • فلما رفض أن يدفعها أمر بسجنه فى القلعة • وكان ينام على التراب ، ويمشون به على قدميه فى شوارع القاهرة ، ويضرب فى صباح كل يوم خمس عشر عصا ، ومثلها فى كل مساء ، وحبسوا اتباعه وخدمه . وطلبوا زوجته وابنه فلم يجدوهما . فعذبوا خادما له عذابا شديدا حتى دل على مكانهما ، فسجنوهما ووضعوا معه زوجته فى سن واحد ، فكانوا يضربونه أمامها ، وهى تبكى • هاجموا داره ، ففتشوها ، ونهبوا ما كان فيها من مال ومتاع وحفروا أرضها للبحث عما فيها من سلاح ومال ، وجعلوا على بيته عشرين حارسا وعندما اعادوا تشكيل الديوان أخرجوه منه

وبعد أن أنزلوه من القلعة عادوا فسجنوه فيها مرة أخرى خمسين يوما ، ثم أخرجوه بعد أن أتم دفع ما فرضوا عليه ، ولكنهم عادوا فصادروا جميع ممتلكاته ، واقطاعياته - وكانت شيئا كثيرا - وحبسوا مرتباته وأوقافه هو وزوجاته ، وريع الاوقاف التى كانت محبوسة على زاوية أجداده . وشرطوا عليه الا يجتمع بالناس، والا يخرج الا باذنهم ، وان يقتصد فى نفقاته ، وينقص أتباعه

وعند ما قدمت الحملة التركية الانجليزية لحرب الفرنسيين سنة ١٨٠١ وعلم الجنرال منو أنها نزلت فى أبى قير ٪ أمر للمرة الرابعة بالقبض على الشيخ السادات، حتى لا يثير المصريين عليهم • وسجن فى القلعة • وبقى سجينا فيها حتى بارح الفرنسيون مصر

وقد مرض ابنه وهو فى السجن ، فلم يخرجوه ليراه . ثم مات فأذنوا له بالسير في جنازته تحت الحراسة ، ثم عادوا به الى السجن

وعندما أضرت الحرب والحصار بالثائرين فيالقاهرة التزم السادات بالانفاق على المحاربين والمجـــــاهدين في المنطقة التي كان يقيم فيها عند قناطر السباع

ومات الشيخ السادات بعد ذلك في مارس سنة ١٨١٣ في عهد محمد علي ونجد له ترجمة وافية ، في الجـــزء الثاني من كتابنا : « دراسات في تاريخ الجبرتي ، مصر في القرن الثامن عشر »

شهداء من العلماء

كانت قيادة ثورة القاهرة الاولى ، كما ذكرنا من قبل ، مقرها الازهر . وكان علماء الازهر وطلبته ، المحرضين عليها ، والمقدمين فيها . فلما انتهت الثورة قتـــــــل الفرنسيون ستة منهم رميا بالرصاص . وهم الشيوخ سليمان الجوسقى ، واحمد الشرقاوى ، وعبد الوهاب الشبراوى ، ويوسف المصيلحى ، واسماعيل البراوى ، والشيخ عبد الكريم

أما الشيخ سليمان الجوسقى ، فقـــــد كان من قرية جوسق ، بالشرقية ، بالقرب من بلبيس . اختير شيخا لطائفة العميان وزاويتهم التى كانت تجاور الازهر .وكان الجوسقى شديد الصرامة على أهل طائفته ، حتى جمع ثروة طائلة ، وحاز عقارات عظيمة ، وكان اذا طالب أعيان البلاد بمال له عندهم فماطلوه ، بعث اليهم بجيوش من العميان ، فلا يجدون بدا من الدفع . وكانت تسير اليه السفن المشحونة بالغلال ، والسمن والعسل ، والسكر ،

والزيت ، من الصعيد الى القاهرة • فيطحن الغلال على طواحينه ويبيعه دقيقا • ويعجن نخالته خبزا لفقـــراء العميان • ويبيع ما بقى من السمن والعسل وغيره بالثمن الكثير . وصار الشيخ فى آخر حياته من أعيان النـــاس وصدورهم ، واصحاب السطوة فيهم • يلبس الثياب الحسنة الغالية ، ويتزوج الكثير من الجميلات . ويقتنى الكثير من الجوارى البيض والسود • ويقرض كبار الناس الاموال الجزيلة

وعندما ثار القاهريون على نابليون ، كان الشـــيخ الجوسقى من اكبر المحرضين وابرزهم أثرا • واعتقد انه هو الذى اشار نقولا الترك الى أنه كان يدعو النـــاس للاجتماع فى الازهر غداة الثورة ، ويحرضهم علنا على الـكفاح والحرب

وأما الشيخ احمد الشرقاوى فكان يدرس لطلبةالازهر طول يومه ، وكان الفلاحون يجيئون اليـه ليفصـل فى قضاياهم ، وخصوماتهم ، فيقبلون حكمه وربما ضرب غير المستقيم منهم وزجره • فكانوا يقبلون منه ذلك ،ويطيعونه وكان أبوه الشيخ ابراهيم ، يدرس فى الازهر أيضا

وكان الشيخ عبد الوهاب الشبراوى تلميذا لكبار العلماء فى عصره • ثم اشتغل بالتدريس فى المشـــهد الحسينى ، والجوهرية ، واقبل عليه كثير من العامـــة يسمعون منه الحديث وفقه الشـــافعية • وكان حسن الالقاء ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، قليل الخلطـــة بالنـــاس ..

وكان الشيخ يوسف المصيلحى يلقى دروســه فى جامع الكردى ، بسويقة اللالا ، وكان نجيبا مهذب النفس ، لطيف الذات ، مقبول الطلعة ، خفيف الروح ، حلـــو

الحديث . قتلَ وهو فى سن الشباب

وكان الشيخ اسماعيل البراوى متوسط الحال فى العلم ، ولكنه كان لسنا ، ذكيا . وكان أبوه عالما ، وعمه من كبار العلماء

أما أخيرهم ، الشيخ عبد الكريم . فلا نستطيع أن نعرف عنه شيئا

***

أخذ الفرنسيون هؤلاء العلماء الستة ، فسجنوهم فى القلعة ، وفى بيت البكرى ، بتهمة الاشتراك فى الثورة ، والتحريض عليها . ثم أنزلوهم خلسة ، فخلعوا عنهم ثيابهم كلها ، وقتلوهم . ثم قطعوا رءوسهم ، وألقوا جثثهم فى النيل ، وخفى أمرهم على الناس وقتا ما قبل أن يعرفوا استشهادهم

ولم يكن هؤلاء العلماء وحدهم هم الذين قتلهم الفرنسيون غدرا وغيلة وظلما ، بل قتلوا غيرهم عشرات ومئات . منهم المصرى ، والتركى ، والشامى ، والمغربى ، ومنهم الحاكم ومنهم الصعلوك . ولكنهم جميعا ماتوا أبطالا شهداء

الحاج مصطفى البشتيلى

وكان من هؤلاء الذين قتلهم الفرنسيون ، الحاج مصطفى البشتيلى . من قرية « بشتيل » المجاورة لامبابة ، بالقرب من القاهرة . اشتغل بالتجارة فى بولاق ، حتى أصبح من أعيانها ، وكبار تجار الزيت فيها . فلما قامت ثورة القاهرة الثانية ، كان البشتيلى من رجالها . فجعل وكالته مخزنا للبارود يمد به الثائرين . وحفظه فى قدور الزيت ، حتى لا يكشف الفرنسيون أمره . ولكن بعض الخونة وشي به

عندهم ، فهاجموا وكالته ، ووجدوا قدور الزيت مملوءة بالبارود ، فأخذوه ، واعتقلوا البشتيلى وحبسوه ، ثم أطلقوا سراحه بعد انتهاء الثورة ،فلما نقض صلح العريش، وتجددت الحرب فى القاهرة ، عاد البشتيلى للاشتراك فيها وكان من أكبر المحرضين عليها • كان يتمنطق فى وسطه بحزام ، وينتقل من مكان الى اخر ، يقوى عزائم المحاربين ويجمعهم ويوجههم للحرب ، ويجمع لهم ما يستطيع من سلاح ، وعصى • وكان من أكبر الدعاة للثورة والمحرضين عليها والعاملين فيها : هجم على مخازن الغلال التى خزنها الفرنسيون ففتحها وفرق ما فيها على المقاتلين وحرض على قتل الرسول الذى بعث به الفرنسيون للصلح • وقاد الثورة التى فتكت بالحامية الفرنسية فى بولاق

ولما عرض كليبر الصلح على اهل القاهرة ، كان من أكبر المعارضين فيه ، والداعين الى مواصلة الكفاح والحرب • مهما لقى المجاهدون من بلاء وقتل وتنكيل .

فلما انتهت الثورة ، جد الفرنسيون فى البحث عنه، حتى وجدوه . فأخذوه هو ووكيله ، وسجنوه فى القلعة وحده . ثم أخرجوه بعد ثلاثة ايام ليقتلوه وكانت القتلة التى اختارها الفرنسيون لهذا المجاهد ، قتلة فاجرة . حيث جمعوا من بقى من رجاله الذين كان يحرضهم على الكفاح وسلموه اليهم تحت حراسة جنودهم . وأمروا هؤلاء المجاهدين أن يقتلوا زعيمهم بأيديهم •على أن يطوفوا به ، قبل أن يقتلوه ، انحاء القاهرة . وقتل المجاهدون زعيمهم البشتيلى بالنبابيت • خضوعا لقوة الفرنسيين وجبروتهم

ووقع فى يد كليبر كتاب ارسله الحاج مصطفى البشتيلى الى بعض رؤساء الجند ، يقول فيه : « أن

« الكلب » دعانا الى الصلح فأبينا » . وكان يقصدبالكلب « الجنرال كليبر » . ولعل ذلك كان من أسباب هـــذه القسوة الفاجرة فى قتله

وقد كان البشتيلى فى غنية عن خصومه الفرنسيين ، فقد كان غنيا واسع الثراء . فلما قتلوه لم يكن له وارث . وكان عديله الشيخ الدواخلى صديقا قريبا منهم فاستولى بجاهه عندهم على ثروة هذا المجاهد العظيم

عمر مكرم والمحروقى

ويبدو غريبا أن نترجم للزعماء والابطال فى هذه الفترة من تاريخ مصر . ونصف السيد عمـــر مكرم بأنه زعيـــم مصر فيها . ثم لا نجد له مكانا فى صدر هؤلاء الزعمـــاء والابطال . وكذلك لا نجد هذا المكان للسيد أحمد المحروقى وكان من أعظم الناس شأنا فى ذلك الوقت

ولكنى التزمت فى هذه الفصول أن اقدم أبرز من كان لهم اكبر الجهد فى الكفاح . ومن واجهوا ، بسبب كفاحهم هذا الموت ، والسجن ، والمصادرة ، والعذاب . ولو كانوا من عامة الشعب ، كحجاج الخضرى . ولم التزم ما اصطلح عليه الناس والمؤرخون من تقـــديم أصـــحاب المكانة الاجتماعية والسيادة . وذلك فى اعتقادى ، أزكى لذكراهم ، واقرب لمـــا أريد من تعريف الشعب بماضى كفاحـــه ، واصحاب الاثر البارز فى هذا الكفاح

وهذا مع اعترافى بما كان للزعيم مكرم ، والسيـــد المحروقى ، من جليل الاثر فى ذلك . وتسليمى بأن انحياز واحد منهما للثورة ، او لخصومها ، او وقـــوفه موقفـا سلبيا ، كان مما يرجح ، الى حد كبير ، احدى الكفتين ، وقد انحاز كلاهما الى جانب الثورة

اما السيد عمر مكرم ، فقد دعا الناس منذ اليوم الاول لمقاومة نابليون . وصعد الى القلعة ، قبل موقعة الاهرام ، فأنزل منها البيرق النبوى ، وطاف به من القلعة الى بولاق . وألوف الناس من خلفه . يستحثهم بذلك على صد المغيرين وحربهم . ويستنفرهم للدفاع عن وطنهم . وكان لهذا العمل منه ، وهو نقيب الاشراف ، أثر أى أثر

فلما هزم المماليك ، والمصريون . ودخل نابليون القاهرة هاجر عمر مكرم الى الشام . وترك فى مصر أملاكه ، وأمواله الطائلة . ولم يقبل عضوية الديوان التى اختاره نابليون لها

***

وبقى فى منفاه الاختيارى ثمانية اشهر فى مدينة يافا ، حتى فتحها نابليون فقربه اليه ، واكرم لقياه واعاده الى مصر عزيزا كريما . فبقى فى القاهرة بعيداً عن الفرنسيين وعن الحياة العامة ، حتى قامت ثورتها الثانية ، فكان من زعمائها . وكان يطوف بالثائرين فى اماكنهم يثبتهم ، ويشجعهم . ويدعو غيرهم للكفاح والثورة

ولما انتهت الثورة ، هاجر مرة ثانية ، وخرج من القاهرة مع الجيش العثمانى . ثم عاد اليها مع هذا الجيش ، بعد خروج الفرنسيين ، فتلقاه الشعب بترحيب عظيم . وقد صادر الفرنسيون اموال السيد عمر مكرم ، فى كل مرة هاجر فيها ولما عاد فى المرة الاولى ، تركوا له بعض ماله ليعيش منه . ولم يطالبهم هو بما بقى

وكانت للسيد عمر مكرم مواقف كريمة فى مجابهة الظالمين من المماليك ، والعثمانيين . كما كان زعيما موجها للشعب ـ على طريقته وطبيعة نفسه من الهدوء ، والقصد في العنف ـ كان زعيما فى الثورة التى اثارها الشعب

على المماليك بعد خروج الحملة الفرنسية بثلاث سنوات. كما كان له أكبر نصيب فى اختيار صديقه محمد على وتمكينه من حكم مصر . وهو الذى ألبسه ، مع الشيخ عبد الله الشرقاوى ، خلعة الولاية ، باسم الشعب فى بيت القاضى سنة ١٨٠٥ . ولكنه كان كثير المعارضة لمحمد على ، بسبب مظالمه . ولما كثر سخط الناس على هذه المظالم . وشكا العلماء ، والسيد مكرم ، ذلك اليه . ارسل محمد على اليهم ليقابلوه . فامتنع السيد عمر . وظل يرفض الذهاب اليه ستة أسابيع . وأراد هذا ان يغريه بالمال . فوعده بأن يرتب له فى كل يوم كيسا ، أى اربعين جنيها ، ولكنه رفض . وابى أن يذهب حتى يرجع محمد على عما فرض على الشعب من الضرائب الظالمة ، فأرسل اليه محمد على رسالة خاصة لمقابلته فأجابه عمر مكرم بانه على استعداد لان يقابله فى بيت الشيخ السادات . فذهب محمد على الى بيت ابنه ابراهيم . وطلب العلماء فحضروا اليه ولم يحضر السيد عمر ..

***

وانتهى الامر الى الخصومة بينهما ، حتى خلعه محمد على من نقابة الاشراف ، وأمر بنفيه الى دمياط فى أغسطس سنة ١٨٠٩ فحزن الناس لذلك حزنا شديداً ، وخرجوا لوداعه حين سافر من بولاق ، لانه لقى ما لقى فى سبيل الدفاع عنهم . وبقى السيد عمر منفيا فى دمياط نحو ثلاث سنين ، ثم امر محمد على بنقله الى طنطا . فبقى فيها أربع سنين . وكان فى منفاه منعزلا عن الناس، كثير القلق والشكوى مما يفعل محمد على بأهل وطنه . يتألم لانه كان سببا فى تمكينه من الولاية . فلما كانت سنة ١٨١٨ أرسل السيد عمر رسالة مع حفيده السيد

صالح يهنيء فيها محمد عليـــا بالنصر الذى أحرزه فى حروب الحجاز . فلقى محمد على الحفيد والرسالةاكرم لقاء . وذكر صديقه القديم بالاكبار والثناء وقال : انه أبى ولم اتركه فى هذه الغربة الطويلة الشاقةالامخافةالفتنة. لانه كان يحرك الشعب ضدى وهو مسموع الكلمةعنده. وارسل محمد على اليه كتابا رقيقا فى منفاه ، يحييه ، ويأذن له فى أداء فريضة الحج ، كما طلب

ثم أطلق سراح الزعيم مكرم ، فعاد الى القاهرة شيخا فانيا فى يناير سنة ١٨١٩ ، ففرح الناس بقدومه أشـد الفرح . واحتفوا به اكبر احتفاء

***

ونجد فى مواطن أخرى من الكتاب ، بعض مواقف هذا الزعيم ، وخاصة فى حرب خورشيد باشا

واما السيد احمد المحروقى فكان تاجرا كبيرا ، بـل كبير تجار القاهرة ، واوسعهم ثراء واكثرهم مالا .وكان حريصا على مكانته هذه وثروته . لذلك حرص على ان يكون قريبا قوى الصـــلة بأصحاب السلطان ، حتى الفرنسيين ، فقـد اتصـــل بنابليون ، وصحبه حـــين سافر الى السويس قبل غزوة الشام

ولكنا نسجل له موقفه من مساعدة الثورة التى قام بها اهل القاهرة على كليبر . فقد بذل فى ذلك مالا كثيرا، وكان ينفق على المحاربين ، ويطعمهم ، ويشترى لوازمهم كلها ، وأدوات حربهم . وحبسه الفرنسيون فى القلعة مع العلماء وظل فى محبسه مائة يوم . ولمـا انتهت الثـــورة هاجر مع العثمانيين ، فصادر الفرنسيون جميع مايملك. ولم يعد الى القاهرة الا بعد جلائهم عنها

***

وكانت للسيد المحروقى يد اخرى على العثمانيين فى

حربهم للفرنسيين . فقد ظل وهو فى منفاه بالشام ، دائم الاتصال بأصدقائه ، وعماله فى مصر . يستطلع اخبار الفرنسيين ، ويتعرف امورهم ، ويقدم ما يعرف من ذلك الى العثمانيين ، فكانت لهم من ذلك فائدة عظمى . ولما قدم جيشهم الى القاهرة كان يوسف باشا المعدنى ضعيف الهمة ، قليل الخبرة وجيشه لا ذخيرة عنده ، ولا مدافع . فلما نقض الفرنسيون صلح العريش ، واشتد القتال بين العثمانيين وأهل القاهرة ، وبين الفرنسيين ، جمع المحروقى الذخيرة والمدافع . وقدمها للجيش والثائرين. وهذه الذخيرة والمدافع ، هى التى مكنت يوسف باشا وأهل القاهرة من الدفاع عن مدينتهم ، ومقاومة حصار الفرنسيين لها اربعة وثلاثين يوما . ويقول الجبرتى: ان السيد المحروقى بذل فى ذلك « مالا يدخل تحت طوق البشر »

ومات المحروقى فى يناير ١٨٠٥ (٢٢ من شعبان ١٢١٩ هـ)





عبرة الأيام

« انك يا هنيبال ، تستطيع ان تنتصر ولكنك لا تعرف كيف تفيد من انتصاراتك .. »

يقول ابن دريد فى مقصورته العظيمة :

من لم يعظه الدهر ، لم ينفعه ما
راح به الواعظ يوما ، او غدا

والامم كالافراد ، يجب عليها ــ لكى تستقيم حياتها وتفلح ــ أن تعرف مواضع العبرة من حياتها وتاريخها وأيامها

فهى عندما تعرف خطأها وصوابها فى ذلك ، تأخذ من ماضيها لحاضرها . ومن كليهما لمستقبلها . وما أشد حاجتنا نحن لاستخلاص هذه العبرة من تاريخنا

فما هى عبرة الايام والحوادث فيما قصصنا من فصول هذا الكتاب .. ؟

أما أولى هذه العبر ، فهى تلك الروح السمحة الكريمة التى بدت بين المصريين ، فلم تجعل لفوارق العقيدة مدخلا فى نفوسهم ، على الجملة

فقد كانت أوضاع الحياة ، وتقاليد الناس وثقافتهم ، تجعل للعقيدة الدينية سلطانا كبيرا فى العقول والقلوب. كما تجعل لها أثرا بارزا فى التصرفات والاتجاهات . ولما جاء نابليون وجيشه ، كان طبيعيا أن يجد فى مصر من يلقاه بهذه العاطفة الخاضعة لهذه العقيدة . بدل أن يلقاه بالعاطفة الوطنية . كما فعل المعلم يعقوب ، أو الجنرال يعقوب . لذلك قلت : على الجملة ..

ولكننا نجد أيضا كثيرا من المصريين المسلمين ، تلقوا نابليون وجيشه بعاطفة لا هى بالوطنية ولا بالدينية . بل نجد من علمائهم من كان كذلك ، كما سيجىء بعد قليل. وكلا الامرين شأن طبيعى لاغرابة فيه . ولا يسىء الى تاريخنا ، وشعبنا . ولا يجرح أى كرامة له

اليهود والنصارى

اما تلك الروح السمحة الكريمة ، التى هى أولى العبر . فنحن نجد أمثلة كثيرة منها . نجد بعض المسيحيين يسجن فى القلعة مع المسلمين لحربه الفرنسيين . كما سجن المعلم نقولا ، وكان رجلا ذا مكانة . ونجد الاقباط يحاربون ويقتلون فى معركة امبابة ضد نابليون . ونجد كذلك ستة من اليهود ـ كما احصاهم أمين باشا سامى(١) ـ قتلهم الفرنسيون خنقا ، أو رميا بالرصاص ، لانهم حاربوهم . كما نجد ذلك فى قصة الشيخ الصاوى والقبطى . وخلاصتها أن الفرنسيين رموا رجلا من الاشراف ، وقبطيا ، بتهمة أنهم يروجون انباء ضدهم وفرضوا على كل منهما مائة ريال . فاذا لم يدفعا قطع

(١) تقويم النيل ـ الجزء الثانى ـ فى اثناء تسجيله لحوادث الاحتلال الفرنسى

لسانهما . وتشفع العلماء فى القبطى والشريف فلم تقبل لهم شفاعة . فطلبوا ان يطلق سراحهما وان يلتزم العلماء بدفع الغرامة ، فرفض الفرنسيون . فأرسل الشيخ مصطفى الصاوى ، وكان من الشفعاء ، وأحضر مائتى ريال دفعها للفرنسيين ، فدية القبطى والشريف . وكأن الفرنسيين اخجلهم ما فعل الشيخ . فردوا عليه ماله . وكان قد أخذه من اخر ، فرده له . وكان الشيخ الصاوى من أعضاء الديوان الذين اختارهم نابليون

وعندما أنشأ الفرنسيون هذا الديوان ، ليحكموا مصر عن طريقه ، أثاروا فى جلسة من جلساته أمر المواريث عند النصارى . وأثاروا بذلك شيئا من خلاف بين العلماء وبعض القبط من أعضاء الديوان . ولعل ذلك ما أرادوه . ولكن ميخائيل كحيل الشامى ، وكان من اعضاء الديوان ، أعلن أن النصارى يتركون للعلماء أمر المواريث لابناء طائفتهم وملتهم ، وانتهى الامر على ذلك

ونجد كذلك ، من اليهود ، من يعرض نفسه للموت ، ثم لا يفشى سرا أؤتمن عليه . ولا يخون زعيما مجاهدا من أشراف المسلمين . فقد أمر نابليون ، كما رأينا من قبل ، باعدام السيد محمد كريم ، زعيم الاسكندرية وان تصادر أمواله . فجاء كليبر بأخيه ، وبحاسب أمواله ، وكان يهوديا ، وهددهما بالقتل حتى يبوحا بما خبأ السيد الشهيد من مال ، فأبيا ، ولم يبح أيهما بشىء

وقد اختار السيد محمد كريم — وهو زعيم وشريف وحاكم — هذا اليهودى أمينا على ماله فميزه واكرمه ، وبره . فكان جديرا به أن يحفظ أمانته ، ويرعى عهده ، ويصون سره . وقد فعل

كانت العاطفة الوطنية اذن ، هى التى سيطرت على

المصريين ، عندما كان وطنهم فى محنة الاحتلال . ولكى ندرك مبلغ هذه العاطفة من القوة ، نذكر ـ الى جانب ما اسلفناه من شعور الاخاء والمودة والتضامن بين عناصر المصريين على اختلاف عقائدهم ـ نذكر الى جانب ذلك ما فعل أهل القاهرة بالسيد خليل البكرى . فبهذه المقارنة، نستطيع ان نصل الى شيء كثير

الكرامة للمخلصين

كان السيد خليل البكرى ، يجمع الى شرف النسب ، جاه المال ، وجاه المكانة الاجتماعية الممتازة . فكان واسع الثراء ، مترفا فى معيشته . ونقيبا للاشراف . وهو منصب من أرفع المناصب ، وأعلاها شأنا . ولكن الشيخ لم يشارك شعب مصر احساس الكراهية والبغضاء للفرنسيين . بل كان قريبا اليهم وصديقا لهم ولنابليون خاصة . وعندما قدم هذا من غزوة الشام ، أهدى اليه الشيخ جوادا عربيا أصيلا ، له سرج مطرز بالذهب ، والياقوت واللؤلؤ . يقوده رستم المملوك ، الذى كان له بعد ذلك شأن كبير مع نابليون فى فرنسا بل فى أوربا كلها، كما اهدى اليه الشيخ عددا من الجوارى البيض والسود. وكثيرا من الاسلحة المذهبة . وغير ذلك شيء كثير. فعل الشيخ ذلك بعد ثورة القاهرة الاولى ، التى لقى فيها مواطنوه من قبل ، من أصدقائه الفرنسيين ما أجملنا ذكره

***

واسخط ذلك كله المصريين على السيد الشيخ ، وزاد فى اشمئزازهم وغضبهم ، ما عرفوه عن ابنته زينب(١).

---

(١) نجد تفصيل قصتها فى الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية الجزء الاول ص ١٨١ ـ ١٨٢ من كتابنا « دراسات فى تاريخ الجبرتى » مصر فى القرن الثامن عشر »

ومن كان منها مع الفرنسيين ، أو مع نابليون نفسه • فذهبوا الى بيته فنهبوه . ثم اخرجوا الشيخ ومعه حريمه واولاده، فساقوه فى شوارع القاهرة حافى القدمين ، عارى الرأس والناس من حوله ومن خلفه يسبونه ويشتمونه ، ويلقون فى أذنيه أوجع القول وأشده ايلاما • ولم يستطع الشيخ واهله ان ينجوا من غضب الناس الا على يد السيد احمد محرم ، وكان تاجرا كبيرا ، فقد أخذه وآواه فى بيتــه ، ومعه أهله ، حتى انتهت الثورة

وكان رجال الثورة يتهمون الشيخ بأنه يرسل الطعام من بيته الى الفرنسيين المحاربين

وهكذا كان شــعب مصر فى ثورته • نسى كل شىء ، ونحى كل عاطفة ، الا عاطفة الوطنية : فالمجاهد ، عنده اخ كريم مرعى الجانب ، ولو كان غير مسلم • والذى ينحرف وينحاز الى جانب أعداء الوطن ، خصم ، ممتهن ، مهان ولو كان سيدا عظيما ، وشيخا كبيرا ، وغنيــا واسع الثراء ونقيبا للاشراف

وهذا غاية ما تصـــل اليه الوطنية من قوة ، ومن سداد ، وحسن ادراك

خاتمة

ومن صفحات هذا الكتاب نعرف أن هذا الشعب العريق الصابر المكافح لم ينخدع بكلمة « الاســـلام » حين أراد نابليون أن يخادعه بها ويلهيه ويلبس عليه بأنه عـــدو المسيحية الذى قضى عليها وعلى سلطانها فى أوربا وأنه سيقيم فى القاهرة أكبر مسجد فى العالم

وأن هذا الشعب الصابر المكافح لم تخدعه نســـبة « الاسلام » حين كان الاتراك المسلمون بالاسم ـ وهم الذين حاربوه فى داره وشنقوا سلطانه الشهيد وتسلطوا عليـه بالخديعة والخيانة والجبروت ، لم ينخدع حين كان هؤلاء الاتراك ينتسبون للاسلام ويزعمون أن سلطانهم هو خليفة المســـلمين وحاميهم وصاحب الامر فيهم وظل الله على الارض ٠٠ !

ونعرف أن هذا الشعب الصابر المكافح لم يخش مدافع الفرنسيين وقنابلهم فحطم غزوهم وجعل معيشتهم فى بلاده ـ من دمياط الى أسوان ـ جحيما وسعيرا ، حتى طهر بلاده من رجسهم ٠ وأنه حطم الغزو الانجليزى وساق ضباطه وجنوده ، من رشيد الى القـــاهرة ، مشـــاة مكبلين بالحديد ٠٠

ثم تولى أمره ، بالغش والمخادعة ، محمد على وأسرته ،

فساموا هذا الشعب العذاب وأذلوا كبرياء الاعزة من ابناءه وضربوا عليه ، مائة وخمسين سنة ، سرادقا من الظلم والظلام والشر . وكانت هذه لاسرة الباغية ســـــببا فى الاحتلال الانجليزى ، بتواطىء توفيق وخيانته ..

فلما أفاق الشعب من صدمة الهزيمة وفجيعة المحاكمة الظالمة التى حوكمها عرابى وأبطال ثورته بدأ ينـــادى ، بالمفاوضات مرة وبالثورة مرة ، مطالبا باستقلاله وحريته ، ولكنه لم ينل شيئا لان أكثر زعماءه كانوا متنازعين متخاذلين تملأ قلوبهم الاحقاد والانانية وحب السلطة

ثم لقى الشعب قائدا مخلصا صلبا جمع شمله ووحـــد كلمته ، واستطاع فى سنوات ثلاث أن يحقق له استقلاله كاملا وأن يزيح عنه ذل القرون ، فقضى على أسرة الطغاة وحقق للشعب استقلاله وجعل له كلمة مرفوعة وكرامة فى العالم عالية ، منذ خرج اخر جندى بريطانى من مصر فى ١٨ يونيو من سنة ١٩٥٤ :

منذ عشر سنوات ، وبعد الثورة بثلاث فقط ..

ولكن المستعمرين لم ييئسوا ، كما نعرف ، وبيتوا للشعب من العدوان ما نعرف ، وسيظل هؤلاء المستعمرون يتربصون بالشعب ولن يرد كيدهم سوى أن يدركوا أن هذا الشعب يعرف كيف يصون ثورته ويفديهـــــــا ويرعاها ..

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم :

دراســـــــات فى الحب

بقـــلم
يوسف الشارونى

يصدر فى ٥ اغسطس سنة ١٩٦٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

اللاذقية :	السيد نخلة سكاف
جدة :	السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٥٩٢
البحرين :	السيد مؤيد احمد المؤيد - ص.ب ٢١
البرازيل :	Mr. Miguel Maccul Cury, R. 25 de Marco, 994, Caixa Postal 7406, Sao Paulo, BRAZIL
سنغافوره :	Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit Al Maktab Attijari Assharat. P.O. Box 2205, SINGAPORE
انجلترا :	ARABIC PUBLICATIONS DISTRIBUTION BUREAU 7, Bishoposthorp eRoad London S.E. 26 ENGLAND



هذا الكتاب

عبد الرحمن الجبرتى هو مؤرخ الشعب المصرى ... مؤرخ ثوراته ونضاله ضد الأتراك وضد محمد على وضد الفرنسيين ، ولقد عبر الجبرتى باخلاص وفهم عن روح الشعب ، وعن ضميره ، وعن محاولته المستمرة للحركة من أجل التقدم وضد التخلف الذى كان يعانى منه ... وكان الجبرتى عالما من الطراز الاول فاستطاع ببصيرته النافذة ، وعقله
التاريخ فى حركته الحقيقية الواعيـــة ... وكان
باحساس فنى خصب فاستطاع أن يحس بالتفاصيل
للصورة العامة مزيدا من الوضوح والجمال والتألق .

وفى هذا الكتاب صفحات ممتعة عميقة من التاريخ
لثورات مصر المختلفة ضد طغيان الاتراك واستعمار
محمد على . ومن خلال هذه الصفحات نســـتطيع أ
للنضال المصرى فى عناده وصلابته واستمراره وعمق
مشرقة لهذا النضال فى أبطاله الذين خرجوا من البيئ
الجماهير والوقوف فى طليعتها كلما بدأت معركة من

وقد استطاع الأستاذ محمود الشرقاوى – بوعيه
الدقيقة بالجبرتى – أن يستخلص من تاريخ الجبرتى
ويحافظ على كل ما فيها من حقائق علمية ثابتة ، وك
فنية جميلة مضيئة ، ثم قدمها الينا فى اسلوب عص

فالكتاب فى حقيقته يقدم لنا روح الجبرتى وضميره
شكل عصرى لا يغير من جوهره الأصيل أى شيء